رواية قصيرة

ياووز

بين الدم والقدر

ميمونة أحمد

يـــاووز

بين الدم والقدر

كتابة

ميمونة أحمد

٢٠٢٥

إِهْداءٌ

إلى أولئك الذين عبروا حياتي كظلال صامتة، علّموني الفراغ بصبر، والخسارة بنُبل،

إلى كل السكون الذي علّمني أن أكتب،

إلى الليالي التي تشظّى فيها المعنى ولم يبقَ غير اللغة ملاذًا،

إلى صمتي حين ضجّ العالم،

إلى من لم يفهم، فزادني عزلةً وصدقًا،

إلى چنى وإستبرق ومرام،

لكم في قلبي زُرقة لا يبهتها الوقت،

كبرقٍ من ضوءٍ دافئ وسط هذا العتم،

أنتم بعض هذا القلب، وبعض هذا النص، وبعض ما أرجوه من رحمة الحياة،

بكم يصبح الحرف أحنّ، والشتاء أقلّ وحشة.

وأخيرًا،

إلى صديقي الوحيد، مُلهمي وداعمي الأول،

عبدالله قُصّار.

كانت الشمعة تنزف ضوئها كما ينزف القلب الذي لا يُشفى، تتقاطر كأنها تبكي وحدها في الزاوية... كأنها تعلم أن أحدًا هنا لن ينجو، حتى الضوء.

الظل على الجدار لم يعد ظل سلطان.

بل ظل رجلٍ، تفكك عن ذاته كخشبة نُزعت منها قدسيتها، ولم يبقَ منها إلا شكلها... لا جوهرها.

جلستُ أنا، سليم، جسدًا بلا لقب، على سريرٍ لا يليق بحاكم، لكنه يليق بمن فقد حتى حقّ الحُلم.

لا جواري، لا وزراء، لا سيف يلمع ولا طبول تُدوّي.

فقط سعال... يقرع صدري كنُذُر القيامة.

يدي اليمنى... تلك التي وقّعت أوامر الموت وفتوحات الشام ومصر والحجاز، ترتجف الآن أمام ريشة.

ريشة!

ما أضعفنا حين نواجه أنفسنا.

نظرت إليها كما ينظر الفارس إلى سلاحه الأخير، لا ليُقاتل، بل ليكتب اعترافه.

فتحتُ دفتري الصغير، لا ذلك الذي يَقرأه المؤرخون، بل ذاك الذي يُقرأ بيني وبيني.

كتبت بخطٍّ مُرتبك:

«إلى الطفل الذي لم يره أحد...»

هل بقي من هذا الطفل شيء؟

هل ما زال يصرخ تحت هذا الجسد الذي لبس التاج وأخفى القلب؟

وضعتُ يدي على صدري، فشعرت كأن جمرةً من أيام الحريم ما تزال مشتعلة.

«كل ما غزوته... لم يُطفئ الحريق هنا.»

صوتي داخلي لم يكن أمرًا سلطانيًا... بل همسًا متوجّعًا.

تذكرت امرأةً بلا وجه، لكنها كانت تُغنّي لي وأنا أرتعد... أهي أمي؟

أم ثُريّا، تلك المرأة الشامية التي صنعتني؟

أعطتني قصة عليّ بن أبي طالب... ثم تركتني لأكون سيفًا دون قلب.

كتبت، وتنهّدي يشقّ الصفحة:

يا صغيري... يا سليم...

ظننت أنك تنجو كلما اخترت السيف...

لكنك فقط اخترت ظلًّا أطول منك.

في عينيّ ومضت مشاهين كضربات السيف:

❖ الضحكة الخبيثة في عيني أحمد،

❖ نظرة أبي بايزيد وهو يمر بي كأنني هواء،

❖ صوت ثُريّا تهمس: "اصمد، يا نور عيني"... بينما أمسح دمعتي سريعًا.

فتحت عيني على برودة الغرفة... رائحة الخل تُغطّي رائحة المرض، كأنها تحاول إخفاء الحقيقة.

أنفاسي ثقيلة، وأصوات الجنود بعيدة... لا يهم.

ما يهم أنني كتبت:

لم أكن أريد أن أكون سلطانًا...

أردت فقط أن أكون محبوبًا... ولو مرة.

من خلف النافذة، صوت مؤذنٍ شاحب...

كأن السماء تسألني لا تدعوني.

لم أرفع رأسي... فقط ابتسمتُ، لا فخرًا... بل اعترافًا.

«ها أنا ذا، بلا راية، بلا لقب، بلا من يناديني "يا مولاي"...»

فقط أنا... وقلمي... وظلّي الذي لا يغادرني.

ظلّي... الذي كتب أكثر مما كتب المؤرخون.

كل ما بقي هو ما لم يُكتب... وأنا أكتب الآن...

لأني لا أريد أن أكون كذبةً أخرى في كتبهم.

أغلقت الصفحة ببطء... وكأن قلبي نفسه هو من يمليني.

هكذا تبدأ القصة... لا بالعرش... بل بما تحته.

بجثة العلم، بهشيم المجد، وبطفلٍ لم يُمنح فرصة أن يكون إلا ظلًّا.

الفصلُ الأوَلُ

ابنُ الكَرِيمِ

«في هذه الزاوية التي تركني فيها رجالي كي لا أعديهم، أجلس أنا... السلطان، الظل، القائد، ياووز،

السلطان سليم الأول.

لكن لا أحد من هذه الأسماء يرافقني الآن سوى اسمي الصغير... سليم. ذلك الاسم الذي نادَتني به أمي قبل أن تختفي، ونادَتني به مربيتي حين كانت تمسح على رأسي وتقول:

"أنت بطل الله في الأرض."»

«كنتُ أظنّ أن للسلطنة طريقًا يُعبّد بالسيوف...

لكنني كنت مخطئًا. إنها تُعبد بالغياب، غياب من أحبّنا،

ثم غياب من نحبّهم».

وُلدتُ في إسطنبول، لا في حضن أم، بل في حضن نظام.

في قصرٍ مكتظٍ بالألقاب، مهووسٍ بالمرايا، حيث الكل يريد أن يكون انعكاسًا للسلطان، كنتُ أنا الظل الذي لا ينعكس.

لم أكن أحمد، الحالم النبيل، ولا كوركود، الآتي كالوعد.

كنتُ سليم.

اسمٌ يُلفَظ في الممرات دون احترام، ويُسجّل على قائمة الأبناء الذين لا يُستشارون، بل يُنتظر نفيهم أو دفنهم.

عندما ماتت أمي، غولبهار، لم يُعلن الحداد في القصر.

كنتُ دون الخامسة، لم أفهم معنى الموت، لكني شعرت بأن الضوء صار أبعد، وأن الأصوات حولي تهمس أكثر مما تتكلم.

بدأ قلبي يُقفل على نفسه، كما تُغلق القباب فوق القبور.

وبينما كان والدي، السلطان بايزيد، يتنقّل بين أبنائه وزوجاته كمن يختار وردةً لتزيين الرداء، كنتُ أنا نبتة بريّة نُسيت في حافة البستان.

ذات يوم، اجتمع الحريم لاختيار مربية جديدة لي.

كنتُ قد بدأت أُظهر عنادًا حادًا، نوبات من الغضب غير المبرر.

كُنتُ أضرب خصيًّا لأنه لمس لعبتي، وأرمي الحجارة على جوارٍ يضحكن على أحمد.

قال الطبيب: «الولد عنيف، يختنق في القصر».

قال أحدهم: «فلنرسل له مُعلّمًا عثمانيًا صارمًا».

لكن والدي تذكّر شيئًا... أو لعلّه تذكّر أباه، السلطان محمد الفاتح.

همس بايزيد:

«كان لمولاي الفاتح مربية عربية... ربما لهذا بقي في قلبه شيء من البصيرة. أرسلوا لي امرأة من الشام».

لم يكن مألوفًا أن تُربّى الأميرات والأمراء على يد عربيات.

في القصر، كانت العربية تُربط بالشعر، لا بالحُكم.

لكن تم إحضارها... ثُريّا.

كانت طويلة، بوجهٍ هادئ وصوتٍ ناعم، بعينين تتكلمان قبل أن تُفتح الشفاه.

دخلت غرفتي لا كجارية، بل كظلّ أم.

نظرت إليّ، لم تُسلّم كما يفعل الخصيان، لم تُنحنِ كما تفعل الجواري.

قالت: «يا سليم، أنا لن أؤدبك... بل سأؤمن بك».

ومنذ تلك الليلة، تغيّر شيءٌ فيّ.

بدأتُ أستمع لها، حتى حين كنت أرفض كلماتها، كنتُ أصدق نبرتها.

حدثتني عن خديجة، عن عليّ، عن خالد بن الوليد.

عن رجالٍ كانوا، كما قالت، «سيوفًا بقلوبٍ من نور».

ثم نظرت إليّ ذات مساء، وقالت:

«أنت أحدهم، إن لم تنكسر».

حينها بدأتُ أبني داخلي حجارةً من حكاياتها.

كنتُ أردد أسماءهم، أراهم في أحلامي، وأشعر أنني لست وحدي.

لكن القصر لا يرحم من يحلم.

في الحريم، كنتُ أُدعى "ابن الغائبة".

لم يكن لأمي من أنصار، ولا لحزني من محامٍ.

الأمراء الكبار يمرون بي وكأنني فتات خبزٍ سقط من طاولة المراسم.

أذكر تلك المرة حين كنتُ أمر قرب صالة التدريب، فرأيت أحمد، أخي، يركب حصانًا مطهّمًا، يصفق له الجميع.

تقدّمت، فأوقفني الحارس بخشونة، ثم ركلني جانبًا.

قال: «لا تقف في طريق الأمير».

وقعت، لم أبكِ.

نزف ركبتي كان أهون من نزف كرامتي.

عدت إلى ثُرَيّا، دمي يسيل. نظرت إليّ، لم تتفاجأ.

سألتني: «هل بكيت»؟

أجبت: «لا، وعدتُ نفسي أن لا أبكي حتى يراني الله».

ضحكت بمرارة، وقالت:

«الله لا يرى الدموع، يا صغيري...

بل يرى ما تفعله بعد أن تتوقف عن البكاء».

كانت تلك جملة فاصلة.

من يومها، بدأتُ أتقن لعبة الصمت.

تعلمت أن أبتسم حين أُهان، أن أُخفض بصري كي لا يروه يحترق.

وتعلمت أن أراقب.

كنت أراقب والدي... لا يخصني بكلمة، ولا بعناق.

ذات مرة مرضتُ أيّامًا، فدخل الغرفة وقال للطبيب:

«هل سليم بخير»؟

ثم خرج دون أن ينظر في عينيّ.

أما حين كان أحمد يدخل عليه، كان يفتح له ذراعيه ويقول:

«أحمد... ضوء قلبي».

وسمعتُ الوزير يقول يومًا:

«أحمد كالنور... وسليم كالسيف.

لكن لا تُبنى الدول بالنور وحده».

ابتسم والدي... ولم ينظر إليّ.

حينها عرفتُ... أنني لن أكون "ابنه" يومًا.

كنتُ فقط... سيفًا في غمدٍ مكسور.

في الليل، كانت الكوابيس تأتي.

كنت أرى أمي تُدفن حيّة.

كنت أصرخ، فتأتيني ثُرَيّا، تضع يدها على فمي، وتهمس:

«اصمت، يا سليم... حتى الكوابيس في القصر يجب أن تكون صامتة».

ومنذ تلك الليلة، لم أبكِ علنًا.

بل بكيتُ في صمتي، في غضبي، في عزيمتي.

كبرتُ وأنا أبحث عن جملةٍ واحدة:

«أنت ابني أيضًا».

لكن لم يقلها أحد.

فقررتُ أن أكون شيئًا آخر.

لا ابنًا...

ولا أخًا...

بل...

قدَرًا.

أنا ياووز.

من وُلد من جرحٍ لا يلتئم.

مِن مُذكَرَاتِ سَلِيمِ الأَخِيرَةِ

«أنا الآن وحدي. لا وزراء، لا جيوش، لا رايات ترفرف فوق القلاع.

حتى الهواء هنا لا ينحني لي. وأنا لا أطلب منه ذلك».

«طيلة عمري، كنت أظن أنني أسير نحو القمة. كل خطوة كانت مليئة بالدم، نعم...

لكنني كنت أبررها: هذه هي الطريقة الوحيدة لكي أُرى. كنت أقول لنفسي: إن لم تُرهبهم،

لن يروك. لكنني الآن أكتب، لا لأرهب أحدًا... بل لأعترف».

«أنا لم أكن جبارًا... كنت مجروحًا. كنت طفلًا فقد أمه، وأباه لم ينظر إليه،

فقرر أن يجعل التاريخ ينظر».

«حين قتلت أخي، كنت أظن أنني أزيل خطرًا عن الأمة. لكن الحقيقة؟ كنت أقتل المرآة التي تظهر لي كم

أنا شبيه به، وضعيف مثله. كل خصم قتلته...

كان يعكس صورتي كما لا أريد أن أراها».

«أمي، أيتها الغائبة عني كالشمس في ليلٍ طويل... هل سامحتني لأنني صرت هذا»؟

«ويا مربّيتي... أنت التي قلت لي: كن قويًا، كن ظلّ الله، كن كعمر بن الخطاب لا يهاب.

لماذا لم تقولي لي: كن إنسانًا».

«حين قلتِ لي: لا تغزو بلاد العرب... كنتِ تُحاولين إنقاذ ما تبقّى من قلبي، لا العرب فقط. وأنا لم أفهم

ذلك إلا بعد فوات الأوان».

«اليوم، كل ما أملكه قلم، ويد ترجف. وسعال يحرق صدري كما حرقتُ المدن».

«إنهم سيقولون عني: "قاهر الصفويين"... "فاتح الشام ومصر"... "خادم الحرمين"... لكنهم لن

يعرفوا أنني كنتُ أبحث عن حضن لا عن عرش».

«لم أكن ندمًا... لكنني لم أكن حرًا».

«أكتب الآن لأن الموت قريب، وأريد أن أكون، للمرة الأولى... صادقًا مع نفسي».

«أنا سليم. الطفل الذي لم يرَ. السلطان الذي رأى الجميع. والقلب...

الذي لم يجرؤ على أن يُحب».

الفَصْلُ الثَانِي

ظِلُ المُرَبِيَةِ

«ثمة أيدٍ لا تمسك بنا، بل ترفعنا دون أن نشعر..

وها أنا أحمل ظلها على كتفي حتى وأنا السلطان».

ثمة نساء يُنجبننا من أرحامهن، وثمة نساء يُنجبننا من صمتٍ طويل، من حكمةٍ لا تُقال، ومن وجعٍ لا يُبكى.

لم تكن أمي، لكنني كنت أعود إليها كلما انكسر شيء في داخلي.

اسمها ثُرَيّا.

كانت امرأة عربية من الشام، لم يكن لعينيها لون واحد، بل طيف من دفء الرمال والوضوح.

اختارها والدي، السلطان بايزيد، بعدما اشتد عنادي وازدادت نوبات الغضب، خاصة بعد رحيل أمي، غولبهار، واندلاع أول فصول الدم في حياتي... في ما سُمّي لاحقًا بـ«حرب الأمراء!».

في بلاطٍ اعتاد أن يعجّ بجواري قوقازيات وبوسنيات، كانت العربية فيه غريبة، والصوت العربي أندر من الوحي.

لكن بايزيد، الذي ما زال ظِلّ أبيه، محمد الفاتح، يُلاحقه، قال يومًا لجلسائه

«ربّما في النساء العربيات شيء يصلح لصناعة السلاطين الأقوياء.»

لم يكن تعييني في سنجق طرابزون تكليفًا شرفيًا، بل نفيًا مؤدبًا بعد حادثة لن ينساها القصر.

قتلتُ ابن عمي، ومعه اثنين من أبنائه، بعد أن أُشيع أنهم يسعون لإثارة الفوضى في السراي، انتقامًا لانتصار أبي على أخيه في حرب الأمراء.

وفقا لما أفكر حينها، أنا كنت أحمي عرش أبي من النزاع.

تلك الحرب كانت صورة مصغّرة عن العتمة التي تجتاح القصور حين يشتدّ الضوء فوق العرش.

حربًا يشنها الأمراء على بعضهم في الأوقات التي تستقر فيها الدولة، كنوع من كسر الرتابة، وتغيير الروتين، بدلًا من أن يتوحّدوا في جبهة واحدة نحو الفتح.

ذلك الدم... كان أول لعنة أحملها باسم العائلة.

لم يكن والدي ليتغاضى، دخل عليّ ذات مساء، ووجهه مشدود كوتر سيف، لم يسأل، لم يستمع، فقط انهال عليّ بعصا الخيزران.

كل ضربة كانت كأنها تقول: «من أعطاك هذا الحق؟!»

كنت أراها بداخل عيناه، لكن نظراته لم تكن غاضبة فقط، بل كانت خائبة.

لم أبكِ، لم أصرخ.

لكن شيئًا في عظامي تهشّم، لا من الألم... بل من أن والدي لم يرَ فيّ إلا ظلًا يجب تقويمه.

تسللت بعدها إلى أحد أروقة السراي، خلف الستائر السميكة، وهناك سمعت حوارًا لم يُكتب لي أن أسمعه.

الصدر الأعظم قال له بهدوء:

«مولاي، الأمير سليم لا يُعاقب كولد... بل كوليّ للعهد في الظل. أدّبه دون أن تكسره، أرسله إلى أطراف الدولة، ودعه يعرف حجم اسمه.»

رد السلطان، مترددًا:

«طرابزون...؟»

«طرابزون، يا مولاي... تختبر قلبه، وتُعيده رجلًا.»

فهمت حينها... أنني لن أُقتل، لكنني لن أُغفَر، صرت اختبارًا مؤجلًا.

ولن أُعفى من حِمل هذا الدم، ولو عشت ألف معركة.

حين حان موعد الرحيل، ذهبتُ إلى ثُريّا قبل الفجر.

دخلت غرفتها فوجدتها مستيقظة، تجلس على الأرض، تسبّح بصوت خافت.

قالت دون أن تنظر إليّ:

«ستعود رجلًا... أو لا تعود أبدًا.»

اقتربت منها، لم أدرِ ماذا أقول.

نظرت إليّ، ثم رفعت يديها إلى وجهي ومسحت وجنتي كأني ما زلت طفلها العنيد.

ثم همست:

«إن ضعت... فاذكر الله.

وإن انتصرت... فلا تنسَ من كنت.»

خرجتُ من الغرفة أحمل في صدري شيئًا لا يُروى.

كنت حزينًا، لكنني مطمئن.

لن تُمحى من المكان، ولن تحرمني منها الحياة نهائيًا.

بدلًا منها، أُرسل معي رجل لا يشبهها... سنان باشا.

كان خصيًا، لكن ليس أولئك الذين يشقّون من أولئك الذين تُزيّنهم الأقمشة... بل من طريقهم بين السيوف.

قاد جيوشًا، وأفشل مؤامرات، وعاد من الموت أكثر من مرة. رجلٌ لا يبتسم إلا إذا هُزم عدو.

في البداية، كرهته.

لم ينظر إليّ كما كانت تفعل هي. لم يربت على كتفي، لم يقل شيئًا حين انطلقت عربتي من إسطنبول.

❖ أول يوم في طرابزون...

كان اليوم رماديًا، والسماء ثقيلة كأنها تعرف ما أحمله في صدري.

القصر صغير، بارد، مبني على تلة تطل على البحر، لا أثر فيه لرفاهية إسطنبول.

دخلت جناحي المتواضع، لم أخلع ردائي، فقط جلست على الأرض.

لم أكن سلطانًا، ولا أميرًا، ولا حتى طفلًا... كنت شيئًا في المنتصف. شيء لا يُسمى.

جلست صامتًا، أراقب الجدران العارية.

تمنيت أن أسمع صوتها.

تمنيت أن تدخل الآن وتقول:

«كل شيء يزول... إلا ما نُبنى به.»

لكن الصمت كان سلطاني الوحيد.

سنان لم يقترب. تركني.

لكنه أمر بأن تُحضّر لي الشموع، والدفاتر، والحبر.

ذلك كان كافيًا.

كأنه يعرف أن ما يُقال لي الآن لا يجب أن يكون بالكلمات.

بمرور الأيام، تغيّر موقفي منه.

كان يستيقظ قبلي كل يوم. يراجع بريد الولاية، يدرب الجند، يُصلّي قبل الفجر. وكان، حين أظنّ أنني وحدي، هناك.

في صمته، كان وفاؤه يُعلّمني: أنت لست منسيًا... بل ممتحَن.

كنت أكتب لها الرسائل.

حروفًا ملتوية، لا تصنع قصيدة، لكنها كانت كافية.

لم تكن ترد، بل تُعيد الرسالة كما هي، مع وردة جافة بين الصفحات.

وكنت أفهم: «قرأتُك... ولستُ غاضبة.»

في ليالٍ معينة، كان البحر الأسود يصدر صوته المرعب، وكأنّه يُخبرني أني لن أعود كما خرجت.

أحمد، أخي، ما زال في القصر، تُغني له الجواري. وكوركود، ما زال يعزف على العود، يثير الإعجاب.

وأنا؟

أنا كنت أتمرّن على أن أكون لا مرئيًا... إلا حين أقرر الظهور.

وذات ليلة مرضت.

هذيان، حُمّى، فقدت الوعي.

استيقظت، فوجدت سنان باشا جالسًا إلى جواري، لا يتحرّك.

قال دون أن ينظر لي:

«أرسلت في طلب طبيب من إسطنبول...
أنت لست من يُترك.»

وقتها فقط، بدأت أصدّق... أنني لست وحدي.

وكتبت ذات مساء:

«يا ظلّ ثُريّا... متى تعودين؟»

حتى جاءني رسول ذات يوم يحمل ورقة من القصر.

رسالة منها.

سطر واحد فقط:

«سليم... حين لا تجدني، ابحث عني في الذي أصبحتَه.»

أغلقت الرسالة. جلست طويلاً.

ثم همست لنفسي:

«أنا ابن غياب... وصنيع يدٍ لم تُر، لكنها صنعتني.»

هكذا تبدأ الولاية... لا بالخيل، ولا بالخطابات، بل بالحُزن المتقن.

وهكذا يُصنع السلطان... من امرأةٍ لا تنجب، لكنّها تعلّمك كيف تُخلد.

لكن... ثُرَيّا، لماذا لم تأتِ معي؟

ذلك السؤال ظلّ يسكنني... حتى اليوم الذي عدتُ فيه إلى إسطنبول، وكانت تنتظرني بلون شعرٍ أبيض، وقلبٍ لم يتغيّر.

«سليم لم يكن يومًا ظلّ السلطنة...
بل ظل امرأة قالت له يومًا، إن الله لا يختار عباده عبثًا.»

مِن مُذكَرَاتِ سَلِيمِ الأخِيرَةِ

«لم تكن أمي، لكنها كانت أول من رأى وجهي دون أن يُقارنني بأحد.»

«لم تَعدني بالسلطنة، بل وعدتني بأن أُحِب نفسي إن عجز العالم عن ذلك.»

«ضربني أبي كأنني عدو، لا ابنٌ يحمل اسمه، لم تدم الضربة، لكن النظرة بقيت.»

«كانوا يقولون: أحمد نور القصر، وكوركود صوته أما أنا؟ كنت الغرفة التي يُغلقونها حين يمر الضيوف.»

«قتلتُ أول مرة، لا لأنني سفّاك، بل لأنني كنت أصرخ: انتبهوا لوجودي!»

«حين قالوا: «أرسلوه إلى طرابزون»، لم ينفوني، بل خلعوا آخر ما كان يشبه الطفل فيّ.»

«ظننت أن ثُريا سترافقني، لكنها لم تأتِ.

لم تكن عصيّة على الأوامر، لكنها فهمت أن بعض الغياب هو الامتحان الأخير للحب.»

«كتبتُ لها: «أين أنتِ؟» فردّت بوردة، وكأنها تقول: ما دمت تكتب لي... فأنا هنا.»

«سنان باشا؟ لم أُحبه، لكنه كان مرآتي حين لم أرَ نفسي، خصيّ، نعم، لكن لم يركع لضعفي، بل حمله عني بصمت.»

«في طرابزون، لم أكن واليًا، كنت شبحًا يبحث عن بشر، كنت أقرأ أسماء المدن كأنني أبحث عن اسمٍ يُحبني.»

«أردت أن أكون محبوبًا، فظننت أن الطريق يبدأ بالخوف.

لكن حين أغمضت عيني، كنت ما زلت أسمعها تقول لي: «كن إنسانًا قبل أن تكون ظلًا.»

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الأَخُ الَّذِي لَنْ أَكُونَهُ

«ليس الجحيم أن تكون مظلومًا...

بل أن ترى من ظَلَمك يُكافأ بالحب».

كنتُ أراه كل صباح، كما لو أن القدر أرادني أن أتعلم القهر على مهل.

أحمد، أخي، الوريث المدلل، البكر الذي حمل اسمه إلى دواوين الشعراء قبل أن يحمل سيفًا.

كان يمشي بثقة العرش، ويضحك بصوت السلطان.
أما أنا... فكنت أمشي في ظله، وأضحك في داخلي.

كان له كل شيء و أنا لا شيء، غرفته تطل على الحديقة، وخيله في الإسطبل لا يُركبها أحد سواه.

و أنا كان لي... ثُريّا، وغضبي.

كنتُ أراقبه عن بُعد، كما يُراقب الأسير مَن نزع منه الحرية، لا ليأخذها، بل ليفهم كيف ضاعت منه.

ذات يوم، كنت في جناح الكتب، أمسك بكتابٍ في الفقه السياسي.

سمعته يضحك مع أبي. لم أكن أسمع الكلمات، لكن الضحكة كانت تكفي كي تشرح العالم.

قالت لي ثُريّا ذات مساء:

«أنت لا تُبنى من فمٍ يُضحكك،

بل من يدٍ تدفعك في ظهرك حتى تُقاوم».

وكنت أُدرك أنني أُدفع، لكني لم أكن أقاوم بعد، كنت فقط أتحمّل.

كلما ازداد مجد أحمد، ازددتُ صمتًا.

ليس خوفًا... بل تراكمًا.

كنت أتساءل:

« ماذا لو أنني لم أكن أميرًا؟ هل كنتُ سأُحب أكثر؟ هل كنت سأُنسى أقل؟»

كان الفرق بيني وبينه، أنه يَخشى أن يخسر ما يملك، وأنا كنت أخشى ألا أملك شيئًا أصلاً.

حين بلغت السادسة عشرة و أستقر تعييني ولايًا على سنجق طرابزون ، بدأوا يهمسون في قصر توبكابي أن أحمد هو السلطان القادم.

كتب الكتبة منشورات دعائية، خُطب الجمعة بدأت تُختَتم بالدعاء له.

أما اسمي... فقد غاب عن لسان الجميع، إلا عن لسان ثُريّا.

قالت لي يومها:

«الرياح لا تسأل إذنك حين تعصف...

وكذلك الأقدار، فقط كن مستعدًا».

تغيرت في داخلي أشياء كثيرة يا ثُريّا.

بدأت أشكّ في مشروعية كل ود، وأُكذّب كل نظرة، وأفتّش في ابتسامة كل خادم عن خيانة مؤجلة.

كنت في طرابزون، واليًا صغيرًا، لا يتجاوز السابعة عشرة، يقضي وقته بين التدريب المكثف على فنون الحرب مع سنان باشا، ودراسة الشريعة وقوانين الدولة مع شيخ يُدعى عبد الحق أفندي، رجل جاف لكنه واسع الصدر، لا يتحدث إلا حين يستدعي الكلام.

لم أكن أهوى العبث مع الحريم، ولا أنظر إلى باب جناح النساء.

كنتُ أنفر من المتعة المصطنعة، وربما لأنني رأيت أحمد و كوركود كيف يغرقان فيها كأنها جزء من إثبات المجد.

كان الزمن يتسارع داخلي، وكانت النظرة تُبنى على الأبعد.

علمتُ أن أبي، إن عاجلًا أو آجلًا، سيختار وليًا للعهد.

ومن شروط الولاية، أن يكون للولي أبناء يضمنون استمرار السلالة.

كنت في الخامسة عشرة، حين بدأوا يُعرضون عليّ أسماء الأميرات والبنات من البيوت الكبرى.

لم أكن مهتمًا، لكن اسمًا شدني:

"جُلبهار شاهين جيراي".

ابنة حاكم إقليمٍ القرم المجاور، من نسل آل جيراي، الذين يصاهرون آل عثمان منذ عهد بايزيد الأول.

كانت تكبرني بأربع سنوات، لكن اسمها... كان ذاته اسم أمي.

وكان في عينيها شيء يشبهها، أو لعله وهْمٌ خلقته ذاكرتي الشقية.

تزوجتها، لا عن حب، بل عن إرادة ألا أُقصى.

لم أكن أحتاج خوض حرب الأمراء لأثبت أنني الأجدر.

كنتُ أعلم، ويعلم المقربون، أنني كنت الأقرب إلى قلب جدي محمد الفاتح، حتى وهو في قبره.

قالها ذات يوم بصوتٍ حازم حين حملني وأنا صغير:

«هذا الصغير... فيه حدة لا تُدرّس،

سيكون أعظم من أبيه و أخوته...

لو لم يكسر قلبه أحد».

ومنذ ذلك اليوم، صرت أؤمن أنني لم أكن مجرد خيار بين إخوة... بل استثناءً ينتظر اللحظة.

ذات مرة، عدت من التدريب متعبًا.

دخلت غرفتي، ووجدت رسالة وُضعت سرًا، فتحتها بحذر، كانت من أحد رجالي في إسطنبول، فيها تفصيل دقيق عن تحرّكات أحمد، ودعوات صامتة من بعض الوجهاء لتوليه العرش.

أدركت حينها أن المعركة بدأت.

كتبت في دفتري:

«إن لم أكن وليًا للعهد... فسأكون وليًا للقدر».

منذ تلك الليلة، تغيّرت روحي.

لم أعد أطلب الود، بل أرصد الخيانة، لم أعد أبحث عن أبي، بل عن لحظة يتوقف فيها اسمه ويبدأ اسمي.

ثُريّا لاحظت ذلك، وإن كانت حتى عني ببعيدة.

كانت الرسائل تأتيني منها، أقل، لكن أصدق.

قالت في إحداها بين السطور:

«سليم، الغضب سيف... لا تجعله تاجك بُني».

لكني كنت قد ارتديته بالفعل يا ثُريّا، فات أوان النصح.

دخلت يومًا قاعة مجلس في طرابزون، وكان فيها سنان باشا وبعض رجال الدولة.

وقفت، وقلت:

«لن أكون ظلًا لحكم أبي، لن أكون حلقةً في سلاسل هذا العرش، بل مطرقة تقطعها».

لم يُعلّق أحد.

لكن سنان باشا، بعد أن خرج الجميع، قال لي:

«يا مولاي، لا تُعلن الحرب قبل أن تعرف حدود السيف».

نظرت إليه، وقلت: «ومن قال إنني لا أختبرها الآن؟»

كانت خطواتي نحو السلطنة قد بدأت، لا بالسيف، بل بالنية.

في كل يومٍ، كنت أقترب من صورة لا تشبه أحدًا من إخواني.

كنت الأخ الذي لن أكونه، فاخترت أن أكون الرجل الذي لا يمكن تجاوزه.

«أحمد... لم أكرهك، بل كرهت ما جعلوني أراه فيك».

«كوركود... لم أحسدك، بل خفت أن يكون الشعر والعود أقوى من سيفي».

لكن في أعماقي، كنت أبحث عمن يقول:

«يا سليم... نحن نراك».

ولم يأتِ أحد.

فصنعت صوتي.

«وكتبت: سأقصّ شجرة العائلة، فرعًا فرعًا...

حتى أكون الجذر الوحيد»..

مِن مُذكَرَاتِ سَلِيمٍ الأخِيرَةِ

«كنت أبحث عن موضعٍ في عيونهم... فلم أجد إلا ظلال إخوتي ».

«أردت أن أكون محبوبًا... فصرتُ يُخشى».

«قالوا: الأمير أحمد سيحكم... فقلت: وأنا سأُكتب قدره» .

«كوركود يكتب الشعر و يعزف... وأنا أعدّ السيوف».

«لم أسألهم شيئًا... لكنهم أجابوا بصمتهم».

«حين لم يمنحوني مكانًا بينهم... قررت أن أكون فوقهم».

«أحيانًا، لا تحتاج أن يراك أحد...

يكفي أن تكون نارًا تحترق حتى يُرى دخانك».

«وها أنا... الأخ الذي لن أكونه... لأنني اخترت أن أكون ما لا يُنسى».

الفصل الرابع

في عيون اللَّه

«حين لا يراك أحد...

تبدأ بالتفكير كيف يراك الله».

لم أعد أعرف شكل الله، لكنني بدأت أكلّمه كثيراً.

لا لأنني كنت أتوق لرضاه، بل لأنني كنت وحيداً بما يكفي لأحتاج من يسمعني دون أن يجيب.

في كل مساء، حين تهدأ المدينة ويصمت البحر، كنت أجلس على صخرة مرتفعة تطلّ على المدى، أسأل الموج عن الأسماء التي غمرها، والطغاة التي غُفِرَ لها.

قلتُ لنفسي:

«إن كان الله يختار، فلِمَ لا أكون المختار؟»

لكن في داخلي، ظلّ صوت خافت، أضعف من التبرير، أقوى من الصمت:

«وإن لم يكن؟ هل ستنجو من نفسك؟»

بعد موت أمي، حملت الفراغ كأنه ميراث.

وكان كل ما حولي يطالبني بأن أكون شيئًا قبل أن أكون أحدًا.

جُلبهار... لم تكن أمًا،

لكنها غطّت غياب الأم بشيء يشبه الصبر.

أنجبت لي الكثير من الأبناء... لكنهم ماتوا واحدًا تلو الآخر، صامتين، كأن الحياة لن توافق أو تسمح بدخول الفرحة إلى قلبي.

كانت تحاول، وفي كل مرة كانت تحترق معي، لكني لم أتخلّ عنها.

لم أترك طبيبًا إلا استدعيته، ولا وصفة إلا جرّبتها.

نذرت، وبكيت، وتضرعت، حتى صارت صلاتي لا تخلو من الدعاء لها، كانت كل دعواتي مقرونة بها.

ومع ذلك، حين أوشكت روحي على الذبول، جاءتني حفصة بعائشة، زوجة ثانية من اختيار جُلبهار نفسها، من سلالة القرم.

رصينة، باردة، وفي عينيها نسل لا يُردّ.

أنجبت لي سليمان، ولي عهدي، ومَن حمل النور في عينيه كما كنت أحلم.

لكن قلبي... بقي هناك،

في الجناح الذي يسكنه الألم المألوف.

حيث جُلبهار، حيث كنت رجلًا لا سلطانًا.

قالت لي ذات مساء، وهي تضع يدها على يدي:

«سليم، إن كُتب لك ذكر، فلا تنسَ من ربت فيك الرجاء».

وعدتُ.

ثم خُنت الوعد كما خنت نفسي.

كان حملها الأخير هو الأكثر مشقة.

قال الطبيب: «توأم، لكن حالتها هشّة.»

شعرت بشيء يخنقني منذ اللحظة الأولى، وكأن النور الذي وعدوني به... سيحترق.

وُلد التوأم مرضى، ضِعافًا، بالكاد يُسمَع أنينهم.

وجُلبهار لم تنم، كانت تسهر وتداوي، وتدعو، وتُذيب روحها قطرة قطرة.

ثم... اشتعل الجناح.

نمتُ تلك الليلة قليلًا. فُزعت على صراخٍ لا يُشبه الحياة.

الدخان يسابق الهواء، والحريم تركضن، والحرس يصيح.

ركضت.

كنت أبًا لأول مرة، وضعيفًا بلا قوة، وأخرقًا كمن فقد المعنى.

رأيت التوأم تحت الدخان، أجسادًا بلا حراك.

و جُلبهار جالسة، عاجزة، محاطة بنارٍ لا تعرف الرحمة.

صرخت وضربتها:

«لماذا يموت كل من أحب؟!

لن تموتي إلا إذا أذنت لك!»

كنت أحمّلها وزري ووزر الكون كله.

لم ينقذها من يدي سوى الحرس، ولم يُنقذني منهم سوى صمتي الطويل بعدها.

مر شهران، لم أسمع فيها صوتها، سوى أنينها في الجناح المقابل.

وفي ليلة من ليالي الغياب، طرقت الباب، جاءتني بصينية، رغيف ساخن، وعصير توت غير مخمّر.

أطعمتني، مسحت جبيني. ثم همست:

«سليم، أنا من سيموت بعضنك، لا أنت».

وماتت.

كما عاشت... بلا صوت، بلا وداع، بلا حق بالدموع.

خرجت من قلبي كأنها لم تكن إلا ظلي حين كنت أحتاج إلى نور.

جاءني الطبيب بعدها، قال همسًا:

«الزرنيخ، مولاي،

السلطانة جُلبهار ماتت من الداخل

قبل أن تموت أمامك.»

وصل إلى أبي الخبر، فأرسل برقية تعزية، كلماتها أجفّ من الصبر، بلا دفء، بلا اسم.

مزّقتها، وابتلعت مرارتها كمن تعلّم ألا ينتظر من أحد شيئًا.

دعوتُ الإنكشارية.

كُنت قد علمت ما جرى لهم في العاصمة، كيف أُهينوا حين طالبوا بحقهم.

كانت تلك لحظة الانتقام النقي.

أعددت ميدان طرابزون كأنه ميدان معركة، علّقنا الرايات، نثرت الطيب، وجهزت حمّاماتهم، وقدّمت ولائم ملوكية.

لبست درعي المهترئ، لا التاج، وقلت:

«أنا محارب لا سلطان. لا أمان في السياسة، لكن في السيف عزاء».

قال يونس آغا، قائدهم:

«يا أمير سليم... لا أمان لنا، لكن لا بأس...

القوة أهم من الأمان.»

منذ تلك الليلة، علمت: لا حاجة أن يثقوا بي، يكفي أن يخشوني لأجعلهم يُحبون ظلي.

بدأت أجهز الحملات.

جيش الإنكشارية بقيادة يونس آغا.

و سنان يُنظّم البحرية، والمدافع تُشحذ، والخطط تُطوى في الخفاء.

وقبل أن أبدأ... جاءني خبر شاهين شاه.

أخي الأصغر، الذي أحببته كما لم أحب أحدًا.

زارني قبل أسابيع، وتحدّثنا عن أيام لم تعد.

كان مريضًا، ثم رحل، مثل كل شيء أحببته يومًا.

مات كما يموت من لا تحميه الألقاب.

لم أبكِ، لم يكن لدي وقت.

كانت الحملة تبدأ.

الصفويون يعيثون خرابًا في الأناضول، والسلطان مشغول بالديوان وأحمد بالغرور و كوركود بين الأدب والشعر.

قادرتُ الجيوش، ونجحت الحملة تلو الأخرى.

وغسلنا الأرض بدمٍ طال انتظاره.

في الحملة الثالثة، ضيّقنا الحصار على الشاه.

هرب، فلاحقته مع فرقة خاصة.

وفي منتصف الغابة، الليل سميك كالموت.

انفصلت عنهم... ثم اختفيت.

صرخة، و تشنج كل جسدي ثم ظلام ساد ظلام أمامي.. ظننت أني ميتٌ

أربعة أيام.

الإنكشارية تبحث عني و سنان يقودهم وسليمان أستدعى من سنجقه ينتفض خوفًا.

ثم وجدوني، جسدي مغطّى بالطين، كأنني من القبر خرجت.

عدت، لا لأني شُفيت، بل لأن المعركة لم تنتهِ.

سنان قال لي:

«وجدوا الشاه يختبئ في مغارة،

يقدّم القرابين للغربان».

أمسكوه، وسلّموه.

فكتبت في دفتري:

«الله لا يرسلني عبثًا...

حتى خصومي يسلّمهم القدر في يدي».

عدت إلى طرابزون، ووجدت حصاني الأول يحتضر.

كان الذي أهداني إياه محمد الفاتح، جدي.

جلست معه يومين لكنه لم يشفى ، ثم همست إليه

«غيث، من بعد الآن،

لا مكان للضعفاء في قصري... ولا حتى في قلبي.»

أخرجت سيفي من غمده وقطعت عنقه.

كان الدرس هذا متأخرًا، لكني فهمت يومها... أن الطفولة لا تُدفن، بل تُذبح.

نعم، كنت واليًا في طرابزون، على حدود السلطنة.

لكنني كنت أرى قصر توبكابي.

وأسمع أذان الأزهر بالقاهرة.

أستنشق ياسمين الشام، وأتوق لبخور الحجاز.

كنت منفيًا في الجغرافيا... لكنني كنت حاضرًا في نبوءة التاريخ.

أنا المختار.. من سيعجّل بخلاص الدنيا.

غازي الشرق، وحامي المقدسات الدينية.

موحّد الإسلام من الشقاق تحت راية واحدة...

ياووز.

مِن مُذكّراتِ سَلِيمٍ الأَخِيرَةِ

«لم أعد أرى في المرآة إلا رجلًا ينهار ببطء...
ويتظاهر أنه ظلّ الله».

«كل من فقدتهم، لم يغادروني... بل بقوا داخلي، كحرائق لم تنطفئ».

«شاهين شاه... يا من كنت لي أملًا هاربًا من بين الظلال، سامحني لأني لم

أبكِك كما ينبغي. لم أكن أملك الوقت... ولا القلب».

«أنا المختار... لا لأنني أصلح، بل لأنني الأشدّ حاجة للمعنى».

الفصل الخامس

إطاحةُ السلطان

«لكي تُصبح سيدًا...

عليك أن تقتل الأب في داخلك أولًا.».

كان وجهه يشبه وجهي، لكن صوته غريب عني، السلطان بايزيد، أبي، الذي علّمني الصمت بالتجاهل، وورّثني الرغبة في السلطة لا بالوصية... بل بالحرمان.

لم أكن أراه خصمًا، بل ظلًّا طويلًا يغطيني فلا أُرى.

لم أكره أبي... فقط تمنّيت

أن يكون لي أبًا لا سلطان.

حين بدأتُ أتحرك، كان هو قد بدأ ينسحب، لم تكن شراسته في الحكم كافية لتوقيفي، لأنه لم يعد يحكم فعلًا.

كان يهتم بالفنون، يجالس الشعراء، ويهرب من صراخ البلاط إلى خلوات التصوف.

وأنا؟ كنت أتعلم لغة الحديد، وكلما أمسكتُ بسيف، شعرتُ أنني أقبض على ظلّه... لا سيفي.

قالت لي ثُريّا يومًا:

«حين يشيخ الأسد، لا يترك الغابة...

بل تُجبره الأسود على ذلك.»

ولم أكن أريد قتله، كنت أريد منه شيئًا واحدًا فقط، أن يعترف بي.

أن يراني، لا كمتربص، بل كابن يستحق أن يُحَب.

لكنه لم يفعل.

كل شيءٍ كان يتجه نحو النهاية.

نهاية صبري، ونهاية تردده، ونهاية تاريخٍ يُكتب بيد غير يدي.

جهزتُ حملة ضخمة.

لم أعد إلى طرابزون، بل إلى إسطنبول، لا زائرًا... بل عائدًا بهويتي الكاملة و عرشي

موكب مهيب، في مقدمته الإنكشارية، يقودهم يونس آغا، ويحيط بي سنان باشا.

وكان معنا أسير واحد، شاه الصفويين.

كانت خطواتي ثقيلة، لكن قلبي أخف من أي وقت مضى. لأول مرة، لم أعد أهرب من ظلي، بل أمشي أمامه.

على رأس الموكب، وجوهٌ سبق وأُهينت في القصر، قادة الإنكشارية الذين ازدرى أحمد مكانتهم، والذين احتقرهم والدي حين طالبوا بحقوقهم.

كان عدد المقاتلين في الحملة كافيًا ليُحاصر إسطنبول بقتالًا شهرين دون هوادة.

لكنني لم أرد الحرب، بل رأيت في السلام شكلًا من أشكال الغلبة، حين يكون النصر نفسيًا أولًا.

نزلتُ في غابة بلغراد، شمال إسطنبول، لم أقترب من توبكابي.

لم أُرع ساكنيه، تركت المعركة تحسم ذاتها.

كنت أعلم أنني إذا عبرت بوابة القصر بالسيف، فلن أخرج منه بضمير.

أرسلت قادة الإنكشارية، وسنان معهم، ليُسلّموا الأسير إلى أبي.

و بأمر سابق مني عند وصولهم ذُبحوا الشاه أمام نوافذ القصر، كنذيرِ فشلٍ فاضح لحكمٍ مترهّل.

ثم، بمنتهى الدبلوماسية، نُزع عن والدي التاج، واقتنع أو أُقنع أن التنازل أهون من السقوط.

أردت أن يبقى حيًّا... فقط لأراه يعترف.

لكنه لم يفعل.

يا لكبريائك يا بايزيد!

فيما كان القصر يستعدّ لانتقالٍ هادئ للسلطة، كانت الساحات تموج بأخبار أحمد.

أحمد؟.. كان قد فرّ من مانيسا قبل دخولي إسطنبول هاربًا إلى حلب، عند خاير بك، والي المماليك.

اختبأ، وترك خلفه زوجاته، وثلاثة من أبنائه.

كيف لرجلٍ أن يخلع دمه كما تُخلع عباءة؟

بعثت إلى خاير بك بطلب تسليمه... فرفض.

قال:

«من لجأ إليّ، هو أمانة لا تُرد.»

«حسنًا أيها المماليك الرعاع... صبرًا.

سأفرغ لكم قريبًا، ولن يمنعني من هلاككم أحد.»

لكن حتى وأنا أهددهم، كنت أفكر به كأخ، لا كخصم.

لماذا لم ينتظر؟ لماذا لم يقف؟ لماذا لا يدافع عن ولاية عهده لماذا تركنا؟ و لماذا لا يواجهني؟

أما كوركود، فقد جاءني راكضًا إلى معسكري، قبل أن أصل إلى القصر.

ركع بين قدميّ، يطلب الأمان، والعفو.

كان مرتجفًا، كأنه طفلٌ فقد دفء العائلة.

وأنا، لم أعد أملك الدفء.

أشفقت عليه، وعدته بالحياة... مؤقتًا.

منحته ولاية سبارتا، إلى جانب أنطاليا، كمكافأة شكلية على بيعته.

لكنني كنت أراقب عينيه... وكنت أرى فيه سؤالًا لا إجابة له.

هل يصدقني؟ هل أسامحه؟ هل سأغفر له لأنه لم يقاتلني؟ أم لأنني تمنيت لو قاتل؟

وسط ضجيج الانقلابات الصامتة، ظهر صوتٌ لم تعد ذاكرتي تجرؤ على انتظاره.

ثُريّا.

كأن الزمن من شدة ما فقد قرر أن يعيدها إليّ لحظة الحسم.

لم تكن آتية لتُقيم، بل لتُغادر.

وقفت أمامي كما كانت تفعل في صغري، حين كنت مجرد أميرٍ تائه، تحاول الكلمات أن ترسم له مصيرًا يشبهه... أو يشبه خيبتها.

الآن، كنتُ السلطان.

لكني أمامها، عدتُ كما كنت ذلك الصغير الذي يخفي الحزن في صمتٍ متعجرف.

قالت، بصوتٍ لا يخترق لكنه لا يُنسى:

«سلطان سليم، من بعد إذنك، أنا عائدة إلى الشام.

وإن احتجتني، ستجدني في بيتي، هناك.»

كلماتها لم تكن وداعًا، بل إشارة نهاية فصل.

كانت عيناها لا تلوم، لا تبارك، لا تسامح...

فقط تراقبني، كما كانت تفعل عندما أُخطئ، ثم أنكر، ثم أعود إليها باكيًا دون أن أبكي.

رأيتها، فرأيت كل سنواتي التي لم تعترف بي إلا حين كنت طفلًا.

أومأت لها برأسي، ولم أقل شيئًا.

وهي... كعادتها، فهمت كل ما لم يُقَل.

لم تحتج إلى كلمة واحدة لتقرأ ما بداخلي.

كنت أبحث في عينيها عن بركة،

ووجدت في حضورها غفرانًا... لا يُمنَح، ولا يُطلب.

وحين أدارت ظهرها لتغادر، شعرت أن شيئًا من قلبي يسير خلفها، دون رجعة.

وقفتُ ثابتًا، حتى اختفت.

ثم همست بيني وبين الله:

«لا أعرف إن كنت أحببتُ أحدًا كما أحببتُ غيابها، ولا أعرف إن كنت سأجد نفسي يومًا، بعد ثُريّا.»

في القصر، كانت المراسم صامتة.

لم تُرفع سيوف، لم تسقط دماء... بعد.

كل شيء جرى كما لو أن الروح انسحبت من الدولة دون أن تترك جثة.

جلس والدي في قاعة العرش للمرة الأخيرة، لا كسلطان، بل كرجلٍ سُحبت منه الهيبة، وتركت عليه العباءة كأنها ثقل لا يليق به.

تنازل.

بصمت، وبوجهٍ لا يحتمل الذكرى.

لم ينظر في عيني.

ربما لأنني صرتُ أُشبهه أكثر مما يحتمل... أو ربما لأنه رآني كما لم يرد يومًا أن يراني.

خرج من إسطنبول إلى منفاه، يرافقه بضع من الجنود، لا ليحموه، بل ليشهدوا على النهاية.

أرسلته سالمًا... كما وعدته.

لكنني لم أعده أن يصل حيًا.

لم أعده بشيء، سوى أن يرحل.

من يدري؟ ربما يجمع بقايا جنده، ويعود يطالبني بعرشٍ لم يصنه.

نام هانئًا يا أبي... فأنا السلطان الآن.

تلك الليلة، لم أنم.

جلست في جناحي، وحدي، بين الجدران التي ما زالت تتذكر صوته أكثر مما تتذكر صوتي.

كان الظلّ طويلًا في الغرفة، كأن صدى وجوده يأبى المغادرة.

كنت أسمع صوت خطواته في الذاكرة، لا في القصر.

نفس الخطوات التي كنت أترقّبها وأنا صغير...

حين كنت أختبئ خلف الستائر لأراه يمر، لأتأكد أنه ما زال أبي... وإن لم يكن لي.

كنت أراه كما لم أره يومًا

رجلٌ بلا ظل، يمشي إلى خروجه الأخير،

ولأول مرة... لا يسبقني.

في تلك اللحظة، أدركت أنني لم أخلعه فقط عن العرش، بل عن قلبي أيضًا.

وأنني لم أنتصر عليه، بل على الطفل الذي ظلّ طوال حياته

ينتظر منه كلمة:

«أحبك».

لكنه لم يقلها...

فقلتُها أنا، بطريقتي:

«ارحل، فإني لا أملك وقتًا للأبوة... في حضرة السلطنة.»

- **أحمد...**

اشتريته من المماليك بثمنٍ بخس.

وعدتهم أن أناصر وليّ حلب إن انقلب على قنصوه الغوري.

صفقة خيانة... وكان هو السلعة.

يا لرخص قدرك يا ابن بايزيد!

حين أعادوه للقصر، كان مكبل اليدين، لم أره كأخ.

رأيته كمرآة لما كنتُ سأصير لو صدّقتُ أن اللين يصلح للسلطنة.

كان وجهه مشرقًا كما اعتاد، لكنه صار بلا نور.

وكنتُ أنا... بلا رحمة.

لم أرغب أن أراه يُذبح كمن لا نسب له.

أنا لم أعد أكره أحمد، فقط لم أعد أؤمن بوجود مكان له في مستقبل أكتبه بنفسي.

قال لي، وهو جاثٍ أمامي في ساحة القصر:

«كنتَ الأضعف... لكنك كنت الأجرأ،

أنا الآن أفهم، و لكن قد فات الأوان.»

لم أجب.

مددتُ يدي، واستلمتُ الخيط الحرير من سنان باشا.

لا أحد يلمس رقبة الأمير... سوى سلطان.

تقدّمتُ نحوه.

لففتُ الخيط على عنقه، كما تُلف الصلاة الأخيرة على جسدٍ سيمضي.

لم يقاوم. لم يصرخ.

فقط همس:

«اغفر لي... إن كنت تقدر.»

وشددتُ الخيط.

كان موتًا صامتًا... كما كانت حياتنا معًا.

وبعدما سقط، نزعتُ الخيط بيدي، وطويته كما تُطوى صفحة في كتاب لم أكتبه.

ثم همست:

«السلطنة لا تعرف الأخوّة... تعرف البقاء فقط.»

• كوركود...

كان حاضرًا.

رأى بأمّ عينيه كيف أعدمتُ أحمد، بلا دم، بلا صراخ.

رأى الخيط الحريري يلتف كقضاءٍ لا يُراجع، وشاهين أخاه يُسلم عنقه كما يُسلّم السرّ للقدر.

وقف بعيدًا، مرتجفًا، وقلبه ينبض من حيث لا نراه.

اقتربت منه.

قلت:

«هكذا يموت من يراهن على العدل في عالمٍ تحكمه السيوف.»

لم يُجب.

كوركود؟

أحببت شعره، وكتبه.

لكنه حمل في داخله بذرة سلطان، أو ربما أورثها لابنٍ لأ أبنائه... أو ربما أبناء أحمد.

أنا لا أقتل الشعراء... لكنني لا أترك للظن أن ينمو.

ركع، من تلقاء نفسه.

لم أطلب منه، لكنه فعل، وكأن قلبه علم أن هذه هي النهاية.

همس:

«سامحني... ولو لمرة واحدة، سامحني كأخيك، لا كسلطان.»

ابتسمت رغما عني و همست إليه

« لن أقتلك يا أخي، قد وعدتك بالحياة يا كوركود... لكن سنان لم يفعل.»

لم أتراجع، لم أقترب أكثر.

فقط استدرتُ نحو سنان.

أومأت برأسي.

وسنان... نفّذ.

بخيطٍ آخر، ناعم كالسكون، لُفّت عنق كوركود، شاعر آل عثمان، وأُسدل الستار على قلبٍ أراد أن يبقى حيًّا بالكلمات...

الأصعب؟ لم يكن أحدهم.

بل كان طفلًا...

ابن شاهين شاه، محمد الصغير ذو الأربعة أعوام، الذي أوصاني به أخي وهو يبتسم آخر مرة رأيته فيها.

زارني في طرابزون قبل حملتي على الصفويين، وقال لي:

«إذا متّ... فمحمد أمانتك، لا تتركه في مهبّ هذا البلاط.»

وأقسمت له، بقلبي، لا بلساني.

ثم عاد إلى الله وتركني أمام وصية، تكبر في داخلي كل يوم.

• محمد..

كان يلعب داخل جناحه الصغير، يركض بين وسائد الحرير مع أخته.

حين سمع خطواتي، التفت، فابتسم.

ركض نحوي وفتح ذراعيه:

«عمّي!»

انحنيت.

ضممته.

كنتُ أسمع دقات قلبه كأنها أناشيد الحياة التي لم أعد أسمعها في صدري.

عانقته... وخنقته.

لم أستخدم خيطًا، ولا خنجرًا.

استخدمت ذراعيّ.

حضنًا طويلًا، أقرب إلى صلاةٍ سرّية.

حتى هدأ جسده بين يديّ، وكأن النوم تسلّل إليه من تعبي.

وحين أسلم أنفاسه، قبلتُ جبينه، وهمست:

«هكذا تُطفأ الشعلة قبل أن تصير نارًا...

اعذرني يا شاهين شاه.»

ثم قمت.

وتقدّمت ببطء... بينما شعرت أن ظهري انحنى، لا من الذنب، بل من ثقل النهاية.

«حتى الرحمة... لم تَعُد لي.»

مِن مُذكّراتِ سَلِيمٍ الأَخِيرَةِ

«لم أكن أحتاجُ العرش... كنت أحتاجُ اعترافًا.

كلمة واحدة: «أنت ابني كما هو أحمد»، لكنه لم يقلها، حتى حين أزحتُه.

«حين جلس في عزلته، لم يطلب مني الرحمة، ولم يلعنني. فقط صمت. كأنني صرتُ نسخةً منه... دون أن يُريد ذلك.»

«هل يعرف أنني كنت أبحث عنه فيه؟ لا كسلطان... بل كأب؟

وهل يعرف أنني لم أكن أريد الخلافة... بل أن أُسمّى ابنه؟»

«أنا لم أخلعه... أنا فقط خلعتُ عني الانتظار.»

«الفاتح وضع القانون لضرورة الحماية... وأنا طبقته لأضع كلمة النهاية.»

«العرش لا يُمنح... بل يُنتزع بالقوة.»

«لا تُصدّق شيئًا أو تُكذّبه... ما لم ترَه عيناك.»

«اعذرني يا شاهين شاه... سامحني، لقد أرسلت ابنك إليك... قد بدأ عهدي و أخشى أن يعقبني أحد .»

«سامحني يا شاهين شاه، لن أدع محمد الصغير يكبر ليصبح فاتح.»

«ثُرَيا... كانت آخر من رآني كما أنا، لا كما صرت.

لم تودّعني، بل أعادتني إلى وحدتي بشرف.

غيابها لم يكن فقدًا... بل اعترافًا بأن بعض القلوب لا تبقى، لأنها أكبر من أن تُشبه من في البلاط.»

الفصل السادس

الطريق إلى الشرق

«الغرب كان إرث الفاتح،

أما الشرق،

فكان إرث قلبي».

حين هدأ صدى الصراع على العرش، وعادت أقدام الانكشارية إلى ثكناتها، بقي شيء لا يعود إلى مكانه، أنا.

كنتُ أمشي في أروقة القصر السلطاني كما يمشي زائر غريب في بيتٍ قديم، يعرفه لكنه لا يشعر بالدفء فيه.

هكذا تبدأ لحظة ما بعد الظفر.

السلطنة لا تمنحك وقتًا للبكاء، ولا غرفة تستريح فيها كإنسان.

تمنحك مفاتيحًا، لكن لا تُخبرك ماذا تفتح.

كل بابٍ يحمل خلفه عينًا تراقبك، ولسانًا يُقيّمك، وصمتًا يُحمّلك أوزار العرش.

جلستُ في غرفتي الخاصة، تلك التي لم يدخلها أحدٌ منذ جلوسي على الكرسي، إلا حفصة، مرة.

نظرتُ إلى الجدار المقابل، حيث علّقوا خريطة الدولة.

لم أرها حدودًا، بل ندوبًا.

كل خطٍ فيها، كان جرحًا مفتوحًا في خاصرة أمة تنتظر مَن يداويه.

«الغرب استُوفي، أُشبعت أراضيه طموحًا، لكن الشرق؟، هو العلم الذي لم يبلغه أحد بعد».

منذ زمن، كنت أظن أن المجد يُرث.

لكنني اكتشفت أن المجد الحقيقي، يولَد من الألم.

وقفتُ، اقتربت من الخريطة، ومررت يدي على قلبها

طرابزون، ثم حلب، ثم دمشق، فالقاهرة،

وأخيرًا مكة.

شعرت برجفةٍ في صدري، لا أعرف إن كانت اشتياقًا، أم شعورًا بأن الله نفسه يراني من بعيد، منتظرًا.

«هل يمكن أن أكون الموعود؟

وهل تختارني السماء فعلًا، أم أنني فقط أبحث عن وجه الله بين الخرائط»؟

في تلك الليلة، سرت في ممرات القصر، والليل يبلع الخطى.

رأيتُ ظلال العرس تذوب على الجدران، لكنني كنت أبحث عن ظلٍّ آخر.

ظلّ لم يكن هناك، لكنه لم يغب عني يومًا.

ثُريّا.

منذ أن جلست على العرش، أكتب لها و لا تجيب.

ليس نسيانًا، لعلها مريضة أو ربما أرهقها الهرم، لكنها كانت تستلم رسائلي

لكنني لست على يرام، يتملكني شعور واحد، أني اشتقت لظلها.

اشتقت إلى صوتها وهي تهمس لي حين أرتجف:

«اصمد، يا سليم، العالم لن يُعدّل لك ظهره،

فاصنع منه سيفًا».

اشتقت إلى يدها وهي تربت على صدري، لا لتربيني، بل لتعيدني.

«أحيانًا، يكون إغلاق الجبهات أكثر فعلٍ

فتوحي من فتحها».

كنت أعرف أن حلم جدي محمد الفاتح امتد غربًا.

روما، المجر، البندقية، بلادٌ تنتظر أن تُقرع أبوابها.

لكنني لم أكن أبحث عن استكمال مجد الآخرين.

كنت أبحث عن حقي، الذي لم يكتبه أحد.

لهذا، وقّعت معاهدات سلام مع أمراء الغرب.

لا حبًا فيهم، بل حمايةً للخاصرة.

أرسلت إلى البندقية، وإلى ملوك المجر والنمسا، رسائل يُعلوها ختمي ونصٌ بسيط:

«سليم الأوّل لا يُقاتل من الخلف، ولا يُغدر به، من أراد السلام... فليُثبت نواياه، ويأمن حدوده».

فاستجابوا.

غلق الغرب... كان أول بابٍ فتحته للشرق.

فكتبت في هامش دفاتري، وأنا أنظر إلى طرابلس:

«لا أخاف من منازلي في الخلف،

لأنها الآن، تنام بلا سيوف».

فالحرب لا تبدأ من فُوّهة مدفع، بل من فُوّهة حبرٍ يكتبُ مبررها.

لم أكن أبحث عن حرب لأجل الحرب.

كنت أُدرك أن الشرعية، في عالمٍ يُزايد فيه الجميع باسم الدين والدم، لا تأتي إلا مهمورة بذريعة لا تُكذّب.

فكتبت لهم...

إلى المماليك:

«هلمّوا بنا نوحد الصف، نضرب الصفويين سويًا، ونُعيد وحدة الأمة تحت راية القرآن».

فأجابوا بالإيجاب ثم بالمكر.

وصلتني رسائلهم السرية إلى قازان، حيث كُشف أنهم تراسلوا مع شاه الصفويين نفسه، وعرضوا هدنةً سريّة مشتركة ضدي.

ضحكت.

لا لأنهم خانوا، بل لأنهم أعطوني ما كنت أبحث عنه، ذريعة شرعية للفتح.

فكتبت في دفتري:

«ما داموا ناصروا الصفويين، فقد باعوا الحرمين، ووجبت عليهم الحرب».

كان كل شيء مكتملًا.

الحجّة، الرسالة، والسكوت الشعبي،

إجماع العلماء و الأئمة.

وسألت نفسي:

«أتحتاج الأمة إلى دليل على خيانتهم؟إذًا، فليكن هذا الفتح، شهادة دفنٍ لدولة لم تعد تعرف لنفسها اسمًا».

«الفتوحات تبدأ بخريطة، لكنّ الخريطة لا تُخبرك بما في قلوب الناس».

لم أُرد أن أقتحم الشرق كسُلطان أعمى.

أردت أن أدخله كما يدخل الحاج إلى مكة، على علمٍ بالناس، بما يُحبّون، بما يخشَون، بما يُخفونه في دعائهم حين يسجدون.

فأطلقت عيوني شرقًا.

لكنهم لم يكونوا عيونًا من النوع المألوف.

كانوا رجالًا من نوعٍ آخر...

دراويش، يتجولون في الطرقات ينشدون باسم الله.

قضاة يُسافرون بقصص العدل من ولاية إلى ولاية.

مشايخ يُدرّسون في المساجد، ويروون عن سليم لا كسلطان، بل كأمل.

كتبت في دفتري:

«حين تكون الخليفة، لا يكفي أن تَعرف.

يجب أن تُعرَف، وتُذكَر، وتُخاف، وتُؤمَّل، في آنٍ واحد».

بدأت الأخبار تصلني تباعًا:

في القاهرة...

الناس يئنّون من الضرائب.

الجند المملوكي لا يعرف الرحمة، ينهب الأسواق، ويهتك الأعراض في بعض القرى بحجّة جمع المال للغزوات التي لا تحدث.

في الإسكندرية...

تجارة البحر تسقط.

الرشوة تُؤكل في أبواب الدواوين.

وأخبار الغوري؟ رجل مُعتكف مع الدراويش، لا يحكم بل يتأمل.

لكنّ اسم طومان باي... يُقال بهمسٍ، فيه أملٌ مكسور.

في دمشق...

الخوف ساكن في البيوت.

و الصفويين يبسطوا نفوذهم.

في حلب...

زاد الفقر و المرض و خاير بك يجهز للإنقلاب على الغوري...

قرأت كل ذلك، وسكتّ.

لكن الذي أرعبني لم يكن الغوري...

بل ذِكر طومان باي.

ذلك الفتى الذي قال عنه أحد جواسيسي:

«شجاعٌ، محبوب، يقاتل إن ظُلم، ويصمت إن ائتمن.
لو كُتب له زمن غير هذا، لربما صار هو سليم،
وسليم صار ظلّه».

وقفتُ طويلًا عند هذه الجملة.

«القوة بلا قيادة، كالضوء دون نار.

لكن إن اجتمعا؟ تُولد الثورة».

أدركت أن هذا الشاب سيكون آخر حجر عثرة بيني وبين تمام الرؤية.

لكني لم أُبدِه في مذكّراتي.

بل كتبت:

«لو أنني لم أُخلق لهذا الزمان... لبايعتُه».

«لا يكفي أن تملك جيشًا لتفتح البلاد، أحيانًا، تحتاج ظلًا لا تراه الناس، لكن ترتعد منه القلوب».

لذلك لم أكن أبحث عن فرق نظامية تُهزم أو تُشترى، او جيوش ذات خطط معروفة للقتال.

كنتُ أبحث عن سيفٍ لا يشبه السيوف المعتادة، لا يتلألأ في وضح النهار، بل يَلمع في العتمة.

عن رجالٍ لا يُغريهم الذهب، ولا يخشون الموت إن كان في سبيل المعنى.... بل لأنهم يعرفون معنى آخر للحياة.

نبشتُ أسماءهم من بطون الكتب القديمة، وتتبعتُ أثرهم كما تُتَتَبّع الرؤى التي لا يعرف أحد إن كانت حلمًا أم تحذيرًا.

كنت أبحث عن الجهاردية.

قيل إنهم أسطورة و قيل أنهم ساعدوا جدي عثمان المؤسس و من بعده الفاتح في غزواته.

هم فصيل ضائع بين صحاري الأناضول من بقايا طائفة نشأت من رحم الحشّاشين، لكنهم لا يعبدوا حشيش الصباح ولا الأوهام التي توارثها الصفويين ، بل يقاتلوا باسم النية الخالصة.

لا يتبعون سلطانًا، ولا يُذكر اسمهم في الدواوين.

يسكنون الجبال، ويتحدثون لغةً لا تُكتب، ولا تُعلّم.

أرسلت رسلي إلى أطراف الأناضول، إلى سفوح زاغروس، إلى مناطق لا يصلها حتى الضوء.

وعدت أكتب الرسائل و القيها بين شقوق الجبال.

«إذا كان في هذه الأرض رجالٌ لا يهابون إلا الله، فأنا أُريدهم لي، أو ضدي، لا وسط.»

بعد أسابيع، جاءني رجلٌ بملامح لا لون لها، صوته لا يشبه صوتًا، بل كأنه طنين الندم في أذن ضميرٍ حيّ.

عيناه سوداوان كأنهما لا تعكسان النور، بل تختزنه.

قال:

«اسمي عُبّاد شاه بن أمين الدين، و بين قومي أدعى الكامل، نحن لا نُبايع، نحن نختبر و نبحث عن المخلص».

لم أجب.

فقط خلعت سيفي، ومددته إليه.

«اختبرني».

لم يقبل المبارزة و أجابني بلهجة ذات حدة:

«نحن لا نقاتل لأجل السلاطين...

بل لأجل من يحمل عقيدتنا لا التاج».

فأجبته:

«أنا لا أطلب طاعتكم، أطلب أن نسعى للخلاص معًا، لا لأجلي، بل لأجل الله، ولأجل من لا صوت لهم».

لم يكثر بالحديث فأومأ برأسه، و رامقني بنظرات توحي بحكمته و همس:

«لقائنا يا سليم بعد ثلاث ليال،

ليلة اربعة عشر القمرية».

رفضوا استضافتهم بالإقامة في قصري، فأقاموا بين جبال بغراد ثلاثة أيام.

يراقبون، يدرسون، لا يأكلون إلا ما زرعوه بأيديهم، يتعبدون ليلًا و ينشدون ابتهالات غريبة بأصواتهم العذبة.

وفي فجر اليوم الرابع، دخل عليّ عُبّاد شاه بقاعة العرش

وقال:

«نحن لا نؤمن بالسلاطين و الملوك، لكنك لست سلطانًا فقط، أنت سؤالٌ يمشي على قدمين من أسمك تبين مصيرك، حرف السين، و هو من اسرار الكون سبع سماوات و سبع سنين عجاف و بعهدك ستفتح سبع أقاليم، وكونك الأبن السابع يشير كل ذلك إلى أنك سيد هذا الزمان و المخلص، سنتبعك و نؤيد حكمك و نرسي قواعد سيادتك على الأرض... حتى نجد لك الإجابة و تجلب لنا الخلاص».

و هنا شعرت أن الوقت بات مناسباً لذا، بعثتُ بهم إلى قلب الدولة المملوكية.

القاهرة

لم يرتدوا زي العساكر، بل تسللوا في هيئة خدم، قرّاء، حواة، وجواري.

كانت أول ضرباتهم...

اغتيل ابن السلطان الغوري... في فجر يوم عيد.

وقُتلت زوجته... في جناحها، ولم يُسمع لها صرخة.

وخرج طومان باي من محاولة اغتياله حيًّا بين الجموع بسوق القلعة ...

فشلوا في قتله ، ليس لأنهم أخطأوا،

بل لأن القاتلة نفسها... وقعت في حبّه.

وصلتني رسائلهم بإتمام المهام و قالت هي في اعترافها:

«اغتلت رجالًا دون أن يرتجف جفني، إلا حين رأيت عينيه. فيهما صدق لا يُذبح و شيئًا لم أره من قبل، كل من أمرتني بقتلهم ماتوا، إلا هذا، رجلٌ لا يُحب إلا الحق، وأنا، خنتك يا مولاي ، لأنني أحببته، انضممت لجيشه و سأحارب إلى جانبه ضدك ».

مزّقت الرسالة، لكن قلبي لم يشأ يمزّقها.

لم أعاقبها، سامحتها

و كتبت:

«حتى الظلّ، إذا عرف الحُب... يُضيء».

لكن لم تكن تلك مهمتهم الوحيدة.

في عمق الأناضول، حيث اختبأ رجلٌ يُدعى علاء الدولة، أحد كبار حلفاء الصفويين ومُروّجي عقيدتهم بين أمراء المماليك، أمرتُ الجهاردية بإنهائه.

كان يُراسل أمراء المماليك ويُشيع أن الخلافة في فارس، لا في إسطنبول.

لم يكن يمكن تركه حيًّا.

فدخلوا خيمته كما يدخل الشك قلب الحكيم.

وخرجوا منها بلا أثر.

وجدوه في الصباح، جثّةً باردة كأنها استسلمت للقدر، لا طُعنت.

لا صرخة، لا نزف، لا أثر.

وحين أخبرني سنان، قلت بهدوء:

«الفتنة لا تُحارَب بالمناظرة... بل تُقتَل من الجذر».

ومن يومها... لم يُذكر اسمه إلا بضع سطور في كتبٍ خاوية، كأن التاريخ نسيه عمدًا.

«العدوّ الحقيقي... لا يسير في الجبهة،

بل يندسّ في الدعاء المسموم».

و في الغرف العليا من قصر الغوري، كانوا يحاولون زرع العيون في ديواني.

لكنني سبقتهم.

خاير بك؟

لم يكن واليًا وفياً لسلطانه الغوري ... بل طيفًا من أطيافي.

أقنعته قديمًا بأن السلطنة المملوكية انتهت، وأن من يَسلِّم القاهرة سيحكمها يومًا بإذني، هكذا دفعت ثمن شراء أخي أحمد منه سلفا.

وهو، لم يخالف وعده...

«بعض القلوب لا تُبهرنا لأنها تُشبهنا،

بل لأنها تبقينا بشرًا».

لم أكن أعود إلى جناح حفصة كثيرًا، لا لأنني لا أحبها، بل لأن السلطنة تُحب أن تأكل كل ما تبقى من الرجال.

لكنّ حفصة... كانت آخر ما تبقّى من سليم، لا من ياووز.

رصينة.

هادئة كأن صوتها نُسج من حريرٍ ذاب تحت قمرٍ صامت.

لا تُجادل، ولا تشتكي.

كانت تعرف أنني لا أبحث عن حنانٍ يُربكني، بل عن حضورٍ يُذكّرني أنني لست سيفًا فقط.

حين أراها، أُدرك كم فقدتُ من طمأنينة جُلبهار، وكم بقي من رجفة في قلبي لم تَمت.

أما سليمان... فكان النور الوحيد الذي لا يذكرني بالدم.

كان يحمل قسمات أمه، لكن في عينيه بريق لم أعرفه في نفسي قط.

كنت أُراقبه من بعيد، أحيانًا يركض خلف المعلمين، وأحيانًا يقرأ في كُتب عمه كوركود وأحيانًا ينظر إليّ كأنه لا يعرف من أكون... السلطان، أم الأب.

كنت أخشى عليه منّي، و أخشى أن أعيش معه ما عاشه بايزيد معي.

خفت أن يرث عرشي... قبل أن يرث غضبي، أن يتهاوى حكمه من بعدي.

دخلت عليه المكتبة ذات مرة، وهو يرسم سيفًا على ورقة قديمة.

قلت:

«سليمان، ما هذا؟»

قال:

«سيفك، أبي.»

فهمت وقتها... أن المعركة بدأت، حتى قبل أن تنطلق الحملة.

كتبت في دفتري:

«أُحب حفصة لأنها لا تطلب، وأخشى على سليمان، لأنه يراني بعيون لم أعد أملكها».

و في تلك الليلة، لم أكن سلطانًا.

كنت جسدًا يرتجف، وقلبًا يرتاب، وروحًا تتأرجح بين سؤالين:

هل ما أقوم به فتح... أم غرور؟

هل ما أطلبه عدل... أم ميراث الغضب؟

غفوتُ، لا كما ينام الملوك، بل كما يسقط من يحمل فوقه أثقال التاريخ.

وحين أغمضتُ عيني،

انفتح أمامي عالم لا يُشبه ما قرأته.

كنت في صحراء بيضاء...

لا رمل فيها، ولا صخور.

صمتٌ نقيّ، كأنه ما قبل الخلق.

وفي وسطه، راية سوداء، لا يحملها أحد... بل تنبض.

اقتربتُ منها، فقرأت:

«من أطاع الظل، ورأى النور... ساد».

ثم خرج إليّ رجلٌ عجوز، يشبه جدي الفاتح، ويشبه أبي حين صمت، ويشبهني وأنا طفل.

وضع يده على صدري، وقال:

«لم تُختَر لأنك أصلح، بل لأنك الأشد وجعًا...

وهذا عدل الله في خياره».

ثم اختفى.

استيقظتُ على صراخ لم يصدر من فمي...

بل من عمقٍ لا اسم له.

في الصباح، لم أكتفِ بكتابة ما رأيت في دفتري.

بعثت به إلى عُبّاد شاه، زعيم الجهاردية، وإلى كبار العلماء في إسطنبول، وفي الحرمين، وفي الشام.

كان ردّ عُبّاد، هادئًا كعادته، قاتلًا ككلماته:

«رؤية كتلك لا يراها الملوك...

بل الذين خُلقوا ليُعيدوا ترتيب الدنيا من جديد».

ثم أتى العلماء...

دخلوا تباعًا، في صمتٍ يشبه إجابة لا تنتظر سؤالًا.

علماء من الشام، من القاهرة، من بورصة، من الحجاز...

جلسوا على سجادٍ بسيط، لا فخامة فيه إلا فخامة ما يحملونه من علوم.

كنت أجلس على كرسيّ لا يشبه العرش.

لباسي لا يحمل ذهبًا، بل سيفًا صغيرًا عند خاصرتي... يشبه سيوف من يُصلحون، لا من يُقاتلون.

قلت، وصوتي يسبقني إلى قلوبهم:

«ما الذي يصنع الخليفة؟ هل يُنتخب؟ يُوصى له؟ أم يُفرض بالسيف»؟

لم يجب أحد.

ثم رفع الشيخ علاء الدين، قاضي دمشق، عينيه، وقال:

«يُصنع بالخوف من الله...

فإن وُجد، وجب الطاعة. وإن فُقد، وجب العزل».

نظرتُ إليه طويلًا.

ثم قلت:

«أنا لا أطلب شرعية، بل أبحث عن صدق، هل في قلبي ما يكفي؟ هل يُراني الله أهلًا؟»

تكلم شيخ الحرم المكي، وكان شيخًا كبير السن، بصره ضعيف، لكن صوته يخترق جدران القصر:

«يا مولاي... إن لم تكن تسأل طمعًا، بل خوفًا، فأنت أقرب الناس إلى ما تطلب».

سكتّ لحظة، ثم أضفت:

«أنا رأيت... رؤيةً، لا تُقال في المجالس، بل تُخشى.

فإن كانت من الله، فاشهدوا، وإن كانت من النفس، فردّوني».

أمرت بأن يُجهّز كتاب رسمي يُرسل إلى أعظم علماء الإسلام:

في الأزهر، والمدينة، ودمشق، وإسطنبول.

طلبت منهم أن يفتوا في شرعية خلافتي، إذا وُحدت تحت راية الحق والسنة،

إذا كان السلطان يُقيم العدل، ويؤمّن الحجيج، ويصدّ الصفويين.

«فإن قالوا نعم، فليُذكر اسمي في المنابر.

وإن قالوا لا، فسأكتفي بأن أُحارب، ولا أُلقّب».

وفي تلك الليلة، لم أسمع أصواتهم، بل صوتًا واحدًا فقط...

صوتها.

ثُريّا.

كانت همستها القديمة تتكرّر في جدران صدري:

«يا سليم، لا تكن سلطانًا فقط، كن ظلّ الله في الأرض. لا بسيفه، بل بعدله».

لم أكن أعلم إن كنت أسمعها، أم أشتاق لأن أسمعها.

لكنني أغلقت مجلس العلماء، وأنا أشعر أن شيئًا ما تغيّر.

أن الحرب القادمة، لن تكون غزو أرض، بل امتحان روح.

لكن ليس كل ظلٍّ يكبر إلا ويوقظ الظلال الأخرى.

بعد اغتيال علاء الدولة وزوجة الغوري و ابنه و وزير المملوكي الأوثق له على يد الجهاردية داخل حمّامٍ في قلب القاهرة.

اهتزّت أعمدة البلاط الغوري كما لو زُلزل قصرهم من الداخل.

لم يعد يعرف من أين يدخل القاتل، ولا كيف يخرج.

لكن الرسالة كانت واضحة...

اليد التي تصل إلى علاء الدولة في الاناضول و زوجة الغوري داخل قصره، قد تصل إلى السلطان نفسه أو عرشه.

وفي جمعةٍ تلت تلك الليلة، ارتفع اسمي في خطبة منبر المسجد الأموي، ثم تردّد في منابر مكة والمدينة و الأزهر في القاهرة نفسها.

«اللهم انصر سليم، الخليفة الجامع و أمير المؤمنين، وسيف السنة على الفتنة، و أهلك الطغاة الظالمين».

سمعها السلطان قنصوه الغوري في مجلسه، فغضب كما لم يغضب من قبل.

قال:

«ابن عثمان هذا لا يسعى للشام وحدها،

بل ليكون خليفة على قلوب الناس».

اجتمع أمراء المماليك و على رأسهم طومان باى ثم ارتفعت رايات الحشد.

بدأت مصر تجمع السلاح.

الخانات امتلأت بالفُرسان، والساحات دُهنت بصرخات الحرب.

لم يكن ردّهم سياسيًا... بل كان ردًا على شعورهم أن أحدًا بدأ يخطف من السماء ما ظنوه حكرًا عليهم.

بدأت حملة المماليك تتجهز...

لا لصدّ جيش فقط، بل لاغتيال حلم ياووز.

«السلطان لا يُقال له "اشتقنا إليك"... لكنه يشتاق».

كنت أُمسك بالأختام الإمبراطورية، أوقّع على مراسيم تحرير الجيوش، وأُراجع تقارير الحدود مع الصفويين و أجهز حملتي على الممالك.

لكنّ يدي التي تُمسك بالقلم كانت ترتجف حين أكتب اسمًا واحدًا...

«ثُرَيّا».

لم تكن تكتب كما كانت.

قد يكون السن أثقلها، او البصر خانها، وربما كانت تمرض ولا تخبرني، كي لا أُقلق .

كنت أكتب لها رسائل تُرسل و لا تعود برد.

«ثُرَيّا، كيف حال العرق الذي بيدك، مازال يؤلمك ؟ ترى ما لون خصلات شعرك الآن؟ فضية؟أم توريها بالحناء الحمراء؟

وهل لا تزالين تذكرين كيف كنتَ تقولين لي:

«يا سليم... لا تُطل النظر إلى المرايا،

فبعض الظلال تلتهم أصحابها؟»

لم تكن تصلني ردود.

أحيانًا كنت أظن أنها ماتت.

لكني، في كل ليلة، كنت أراها.

لا في المنام فقط، بل في كل ركن من قصري.

في الممرات...

حين يسير الحرس بصمت، كنت أسمع وقع نعالها.

في المكتبة...

كل كتاب كنت أمسكه، كانت يداها تُقلّب صفحاته قبل عينيّ.

في ساحة الديوان...

كنت أسمع صدى صوتها وهي تقول:

«لا تكن واحدًا من السلاطين الذين كتبناهم في كتب التاريخ... ونسينا أن نحبهم».

ثم، ذات مساء، جاءني رسول.

كان يحمل لفافة صغيرة من الورق، وعليها ختمها العتيق الذي اختاره لها وزير أبي، أنها رسالة من ثُريّا.

فتحت الرسالة و أنا بين لهفة و شوق.

كانت قصيرة، و مقتضبة.

«سليم بني، أنا أنتظر الموت...

حاول أن تسبقه بزيارتي».

توقفت الدنيا.

توقفت الجيوش.

توقفت أوامر الإعدام.

توقفت فكرة الشرق والفتح والعرش.

وبقي صوتها الناعم يتردد داخلي.

«أنا... أنتظر الموت».

وضعت الرسالة في صدري.

ورحتُ أُحدّق في جدران القصر كما يُحدّق طفلٌ في غرفته الفارغة بعد أن تخرج أمه ولا تعود.

مشيت في الممر الطويل المؤدي إلى خريطة الدولة، ونظرت إلى دمشق.

همست و عيناي تدمع، كنت أظن أنه لم تعد لدي دموع

«يا ثُريّا، لم أعد آتيك باكيًا، بل آتيك رجلاً... عاد ليقول شكرًا أنك كنتي دائما بقربي حتى من بعيد».

وفي تلك اللحظة، عرفت أن الطريق إلى الشرق... لن يكتمل قبل أن أمشيه وحدي، إلى بيتها.

أغلقت الرسالة، وقلت بصوتٍ لا يسمعه غير الله:

«يا أمي، انتظريني، فالشرق لا يُفتح إلا بعد أن يُغلق جرحك».

في تلك اللحظة، فهمت.

أن كل البلاد التي فتحتها، وكل العروش التي أطحت بها... لا تعني شيئًا

إذا لم أصل إليها قبل أن يسبقني الفناء.

أمرت بتأجيل الحملة لأيام، أو أشهر لا يهمني.

كتبت في دفتري:

«أنا لا أبحث عن نصرٍ جديد، بل عن وداعٍ لم أستطع تحمّله سابقًا».

ثم ناديت على سنان باشا:

«جهزوا الطريق... إلى الشام، فثُريّا تنتظرني».

مِن مُذكّراتِ سَلِيمٍ الأَخِيرَةِ

«الغرب كان ماضينا... أما الشرق، فحجّتنا إلى المستقبل».

«حلم عثمان كان شرارة... أما أنا، فالنار».

«الرؤى لا تصنع الجيوش، لكنها تجعلها تؤمن».

«الرؤى تنتشر بين الناس... وتمهّد الطريق».

«إن لم تجد الذريعة، اصنعها. وإن لم تُفتح الأبواب، اكسرها باسم الله».

«ما التّاريخ إلا أقوامٌ تحكم... وأقوامٌ تُحكم».

«أنا لم أولد لأحكم، بل لأُعيد المعنى إلى الحكم».

«الظل لا يكفي... لذلك صنعت من نفسي سيفًا».

«الجهاردية... سيوفٌ من الظلال، لا يقاتلون لأجل سلطان، بل لأجل المعنى».

«حتى طومان باي، الذي نُصب للقتل... أوقف الخنجر بعينيه،

فارتجفت قاتلته، ووقعت في حبّه».

«طومان باي... كان يمكن أن يكون أنا، لو لم أكن أنا».

«قنصوة الغوري لم يكن سلطانًا، بل صدًى لأصواتٍ انطفأت في قلب القاهرة».

«ثُرَيا... كنتِ ظلّي حين لم يكن لي ظل، وصوتي حين خرس قلبي».

«حفصة عائشة... لم تكوني فقط زوجة السلطان،

بل ضوءًا ينقذني كلما تذكرت أنني ما زلت إنسانًا».

«سليمان... يا من أراك وتخافني، أتمنى أن ترث النور لا سيفي».

الفصل السابع

ما دمتِ حيّة

«أعرف الطرق التي تقود إلى العروش...

لكن الطريق إلى قلبٍ يشبه البيت ؟

هذا كان أشقّها».

لم تكن الرحلة إلى دمشق سهلة.

لم تكن ممكنة في الأصل، لكني جعلتها كذلك، كما أفعل دائمًا حين تعاندني الأقدار.

كان المماليك يراقبون تحركاتي، يعلمون أن شيئًا يُعدّ في الأناضول.

الخيول التي لا ترتاح، والرُسل الذين لا ينامون، والحديد الذي يُشحذ بصمت... كلها كانت دلائل على ما يُراد للشام.

لكن لم أكن أبحث عن الشام، ليس بعد.

كنت أبحث عنها.

ثُريّا.

غادرت إسطنبول متخفّيًا، بلا رايات ولا صخب، مع قافلة صغيرة لا يرافقها سوى الصمت... وصوت واحد يهمس لي من عمق الذاكرة:

«لا تبدأ بي».

عبرت الجبال، والمضايق، والقرى الخافتة. لا اسم يسبقني، ولا سيف يحميني سوى إصرار داخلي يشبه الجنون.

وصلت إلى دمشق في الليل.

المدينة كانت تغفو على صوت النهر، وتتنفس ببطء كأنها لا تدري أن التاريخ يمر من تحت جدرانها.

دخلت حيّ الشاغور، ذاك الحيّ العتيق الذي لم تغيّره القرون، حيث الحجارة تعرف أسماء العابرين، والزوايا تهمس بأسرار لم تُقل.

كنت وحدي.

السلطان وحده، يمشي كمن نسي أن له عرشًا وجيشًا وقُضاةً يكتبون باسمه الفتاوى.

لم يكن بيتها قصراً، لكنه كان أصدق من كل قصور إسطنبول.

جدرانه من الطين، أبوابه من الخشب العتيق، وعبر النوافذ كانت تفوح رائحة ياسمين صامت... يشبهها.

طرقت الباب، لم تفتح هي.

فتحت فتاة صغيرة، لا تتجاوز العاشرة، بعينين واسعتين فيهما شيء من ملامح دمشق، وبعض من الحنان الذي لم أعرفه منذ رحلت ثُريّا.

قالت لي همسًا، بعينين فيهما حكمة لا تليق بطفلة:

«قالت لي إنكَ ستأتي... وأوصتني ألّا أسأل، فقط أن أفتح لك الباب.»

ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، كأنها تعرف أكثر مما ينبغي، واستدارت بخفّة نسيم الليل، تاركةً الباب مواربًا، واللحظة معلّقة بيني وبين الذاكرة.

تركتني وحدي أمام العتبة التي لم أرهب مثلها من قبل.

ترددت.

أعظم قراراتي في الحرب لم تأخذ منّي هذا الكمّ من التردّد.

لكني طرقت... ودخلت.

رائحتها سبقتني.

نفس العطر، نفس الهواء، نفس الأمان الذي ضاع مني ذات منفى.

كانت غرفتها غارقة في ضوءٍ رمادي باهت، يتسلّل من نافذة نصف مغطّاة بستارٍ مهترئ، يرقص مع الريح كأطراف كفن.

الفجر لم يكن قد حلّ بعد، أو ربما كان يحتضر... الزمن نفسه بدا متجمّدًا، كأنه ينتظر شيئًا، أو أحدًا.

كأنّه يحبس أنفاسه لأجل هذا اللقاء وحده.

رأيتها.

كانت ممدّدة على فراشٍ أبيض شاحب، تحفّه وسائد مصفرّة بلون الزمن.

كأن الجدار انحنى يحميها، أو يستتر من شجاعتها.

وجهها لم يتغيّر كثيرًا... لكن عينيها؟

عيناها كانتا تشبهان الغروب حين يتأخّر كثيرًا... حتى يكفّ الناس عن انتظار الفجر.

همست دون أن تتحرّك، دون أن تنهض، ودون حتى أن تفتح جفنها تمامًا:

«جئت؟»

تقدّمت ببطء...

كأن كل خطوة كانت تعري جرحي، وكل صوت تحته يئنّ بالندم.

قلت، بصوتٍ خافتٍ، يتعثّر بين قدميّ:

«جئت».

ساد صمت.

ثم قالت:

«عندما تركتك تذهب إلى طرابزون، كنتَ أميراً.

أما الآن، تقف أمامي سلطاناً، لكن يداك، يا سليم، يداك تقطران بدماء الأبرياء.»

ارتجفت.

ولم تكن رجفة لوم، بل رجفة صدق.

كانت كلماتها كحجرٍ يوضع بهدوء على صدرٍ عارٍ.

هي الوحيدة التي لم تكن بحاجة أن تصرخ كي تقتلني.

جلست قرب الفراش، على الأرض، كأنني تلميذ عاد إلى الكتّاب بعد سنوات من الهروب.

همست، بصوت مكسور:

«ثُريّا، يا أمّي، أنا لم آتِ كغازٍ، بل جئتُ لكِ، لأجلك.»

رفعت يدها الهزيلة المرتجفة، ولمست وجهي بخفة، كما كانت تفعل حين كنت صغيرًا وأبكي دون سبب.

لامستني كما لو كانت تمسح شيئًا أعمق من الجلد... شيئًا ضاع منها.

قالت بصوت خافت:

«ربيتك صغيرًا، لتكون أميرًا ينصر الحق، لا سلطانًا يتكئ على الدم.

علمتك الحيلة، لا الخيانة.

علمتك أن تحمي الدين، لا أن تُخيفه.

لم أُربِّك لتُصبح غازيًا، ولم أحلم أن تصل إلى ما وصلت إليه بهذا الشكل.

سليم، أين ضاع الطريق منك، يا ولدي؟»

لم أُجب.

كل الخطب التي ألقيتها، كل فتاواي، كل انتصاراتي،

بدت فجأة مثل رماد يتهاوى أمام نسمة.

تذكّرت...

كنت طفلًا حين أمسكت سيفًا خشبيًا أمام المرآة، أصرخ مقلّدًا جنرالات الإنكشارية،

دخلت ثُريّا، ضحكت، مسحت العرق عن جبيني، وقالت:

«تعلّم كيف تحمل نفسك... قبل أن تحمل سيفك.»

نظرت إليها، وهمست:

«هل حملت نفسي يا ثُريّا؟

أم حملتني الكراهية؟»

رفعت بصري وقالت عينيّ أشياء لم تقله الشفاه.

قلت:

«بايعني علماء الأزهر، قضاة دمشق، أعيان الحجاز، جميعهم رأوا فيّ ظلّ الخلافة.»

قالت بحزمٍ هادئٍ، كمن يلقي آخر صلاة:

«الظل لا يعني النور، يا سليم. إصلاح الأمة يبدأ بإصلاح النيّة.

أتغزو لتكون أمير المؤمنين؟

أم لتُخلّد؟

أم لأنك، تخاف النسيان؟»

نظرتُ في عينيها، دون مواربة، وقلت:

«كلّ ذلك، يا ثُريّا... كلّه.»

أغمضت عينيها لحظة، ثم قالت، وكأنها تنذر:

«إذًا، انتظرني. لا تبدأ الغزو وأنا حيّة.

لا أريد أن أراك كما رأيتك الليلة.

إن كنتَ ستغزو العرب... فانتظر موتي.»

انهرت.

بكيت كما لم أبكِ من قبل.

لا يوم نُفيت، ولا يوم مات شاهين شاه، ولا حتى يوم جلست على العرش.

بكيت بصوتٍ لم يسمعه أحد منذ طفولتي، وأنا أقول:

«أعدكِ، لن أغزو حتى ترحل روحكِ عني.»

قالت وهي تغمض عينيها بهدوء، وصوتها ينطفئ تدريجيًا:

«احفظ وعدكِ هذا، وأنا أُسامحكَ عند رحيلي.»

في الأيام التالية، لم يكن هناك سلطانٌ في بيت الشاغور.

كنتُ فقط رجلًا يجلس على حافة فراش امرأةٍ تمثّل له آخر ما تبقّى من يقينه في هذا العالم.

ثُريّا لم تكن تحكي كثيرًا.

لكن حين كانت تفعل، كان صوتها يأتي كهمس الريح بين نخلتين،

صوتٌ لا يسمعه إلا قلبٌ تعب من الحرب، وذاكرةٌ متعبة من الانتصارات.

كانت تتحدث عن دمشق كما كانت، لا كما صارت.

عن طفولتها بين الحارات، عن الوجوه التي تفرّق بين المكر والصدق،

وعن كيف علّمتني أن لا أشبه أحدًا...

ثم رأتني، في النهاية، أشبه الجميع.

كنا نأكل سويًا، القليل جدًا.

وأحيانًا لا نأكل.

تكتفينا الحكايات، ويشبعنا الصمت.

كنت أعدّ لها الماء الدافئ، وأبدّل لها شالًا على كتفها كأنّي أخاف أن تنكسر نسمة من حولها.

أراقب تنفّسها من بعيد، كما يراقب العابد شمعةً خافتةً،

يتمنى لو يهب لها نفسه كي لا تنطفئ.

في الخلفية، كانت الرسائل تتوالى.

سنان باشا كان يأتيني كل يومين،

وجهه لا يعرف الابتسامة،

كأن شيئًا فيّ يخيفه أو يؤلمه.

يحمل أوراقًا مختومة بختم إسطنبول، أو رسائل من حفصة،

أو أحيانًا بخط صغير متردد، خط سليمان.

في إحداها كتب:

«هل تعود قريبًا؟ الجوّ بارد، وأمّي لا تنام»...

كنتُ أقرأ الرسالة، أضعها على ركبتي لحظات، ثم أقول لسنان دون أن أرفع عينيّ:

«رد، بطريقتك».

كان ينظر إليّ نظرة لا أدري أهي شفقة، أم رجاء، أم عجز.

هو الذي رآني على صهوة الفرس، أدخل المعارك كأنني ظلّ القدر،

يسمع طبول العرش وهي تقرع باسمي...

يراني الآن جالسًا في بيت صغير، بلا سيف، بلا تاج، بلا خوف...

رجلٌ وحيدٌ قرب فراش امرأةٍ مريضة.

لكنه كان مخلصًا.

لم يسأل.

لم يعترض.

فقط انحنى... وخرج.

ثُريّا كانت تعلم أن شيئًا يدور حولي.

لكنها لم تسأل.

كأنها كانت تقول لي بعينيها:

«أنا هنا، فلا تُفسد اللحظة بما لا يخصّنا،

الخارج لا يعنيني، ما دمتَ أمامي».

وفي إحدى الليالي، كانت تغفو على غير عادتها.

جلستُ قربها، أحدّق في يدها النحيلة، في الأصابع التي كانت تضربني بها على رأسي كلّما تمردتُ صغيرًا، كأنها كانت تصحّح مساري حتى في لعب الطفولة.

همستُ، كمن يخاف من أن يسمع صوته:

«ثُريّا، كنتُ أخاف من الظلام حين كنت طفلًا.

وكنتِ تقولين: إن الله لا يترك من لا يتركه...

لكنّي تركته كثيرًا، يا ثُريّا...فهل تركني»؟

لم تجب.

ظننتها نائمة.

لكنها فتحت عينيها فجأة،

وقالت بصوتٍ بدا كأنه قادم من هواءٍ أعلى، من سماءٍ غير مرئية:

«حاشاك يا بني، الله لا يترك أحدًا.

لكنه أحيانًا، يسمح لنا أن نُكمل الطريق وحدنا،

لنعرف كم كنّا نحتاجه.»

في تلك الليلة،

لم أقل شيئًا.

لكنني عرفت...أنها سترحل.

في اليوم السابع، لم تفتح عينيها.

كنت جالسًا قرب الفراش، أقرأ بصوتٍ منخفض من مصحفٍ صغير كانت تحتفظ به في صندوق خشبي قديم.

يدي كانت على يدها، وكانت يدها أبرد مما ينبغي، لكنني كنت أرفض التصديق، قلت بداخلي لعلا يكون السبب البرد و الرطوبة

كنت أرتّل، وأخنق ارتجاف صوتي، وأتمنى لو أن في الحروف معجزة تشفيها.

ثم تنفّست ببطء، كأنها تحاول أن تترك العالم دون أن تزعجه.

قالت دون أن تنظر إليّ:

«سليم، سامحتك.»

أردت أن أقول شيئًا، أي شيء.

لكن الحلق جاف، والصوت علق في القلب.

همست بين دموعي التي حبستها :

«لا، ارجوكِ ثُريّا... لا تذهبي.»

قالت:

«سليم، بني انا ذاهبة، لكن...

لا تنسَ، ما دمتُ حيّة، لا تغزُ».

ثم ابتسمت، ابتسامة مائلة فيها كل ما يشبه الغفران... وأغلقت عينيها.

إلى الأبد.

لم أصرخ

لم أنهَر.

فقط أمسكت يدها وقبلتها ثم لامست لها جبيني وقلت لها كما كنت أقول وأنا طفلٌ أبكي في حجرها:

«انا آسف... آسف إن كنتُ أنا النهاية التي لم تريديها».

و في اليوم التالي، أمرت بتجهيز الرحيل.

لا جنود، لا مواكب، لا أعلام.

فقط نعش صغير، مغطّى بقطعة قماشٍ بيضاء، لا يسبقها اسم ولا يتبعها لقب.

سنان باشا جاءني، وسأل:

«إلى أين، يا مولاي؟»

قلت بحسم:

«إلى إسطنبول، ولن ألبس السيف، حتى تُدفن».

طوال الطريق، لم أتكلم.

كنت أشمّ في ثنايا الكفن رائحة البيت...

ولأول مرة، كنت أعود من دمشق بلا نصر، لكن بقلبٍ أثقل من أي معركة.

في إسطنبول، أمرت أن تُدفن في تلة تُشرف على المضيق.

هناك حيث كنت أقف صغيرًا، وأتمنى لو أطير إليها.

الآن... أوصلتها للمكان الذي تمنّيتُه لها.

بنيت لها مقامًا صغيرًا، لا يزوره أحد، لا يحمل اسمها، لكنه يحمل نورها.

وسمّيته ظلّ النور.

وقفتُ أمام القبر وحدي.

ولا أحد رأى دموعي.

قلت:

«مِتِّ يا ثُريّا... وقد متُّ معك،

لم أعد أملك سببًا للتأخر».

وفي تلك الليلة، صدرت الأوامر.

تحرّك الجيش نحو حلب.

مِن مُذكّراتِ سَلِيمٍ الأَخِيرَةِ

«حين ماتت، لم يكن في قلبي مكانٌ لصرخ، بل فراغٌ يشبه موت مدينةٍ بعد زلزال،
لا يُسمع فيه سوى أنين الأرض.»

«كانت يدي على يدها، لكنّي لم أشعر بها تفلت، كأنها اعتذرت من الحياة بهدوء، ومضت
دون ضجيج..»

«لم تكن أمي ، بل أكثر؛ ولم تكن سلطانة، بل سلطاني الأول.»

«كل الذين فقدتهم تركوا فراغا، إلا هي، فقد تركتني عاريًا من الداخل.»

«كنت أظن أنني جئت لأفتح الشرق،
فاكتشفت أنني جئت لأودّع من أغلق قلبي عن الفتح.»

«لم أعد أؤمن بأن الخير ينتصر،
بل فقط بأن الحب... يؤجّل الهزيمة.»

«غيابها لم يُربكني سياسيًا... بل دينيًا.
لأول مرة، شعرت أنّ السماء لا تنتظر قراراتي، بل تنتظر طُهري.»

«ما دامت حيّة، كنتُ رجلًا له ظل. أما بعد موتها، فأنا ظلّ لا رجل.»

«يا من كنّا نختلف، ثم تغفرين، ثم تقولين لي: "إن الله لا يترك من لا يتركه"
فها أنا، تركتكِ تموتين وحدكِ، فهل الله سيتركني.»

«على قبركِ، قطعت الوعد...
أن لا أعود من حلب إلا وأنا رجلٌ يُشبه ما أردتِه لي، أو لا أعود أبدًا.»

«حين ماتت ثُرَيا ، مات آخر صوتٍ يقول لي، كفى.»

«ثُرَيا، كنتِ ميزان الرحمة في قلبي، والآن، ما عدتُ أزن شيئًا.»

«لا تسألوني عن نواياي، فقد دفنتها تحت التراب، باسمٍ لا يُنطق،
لكني أحفظه في نبضي.»

الفصل الثامن

مرجُ الدم

« لكنّ الحرب لا تُربَح بالشجاعة وحدها،

بل بالدهاء، وتهديد الولاء ».

البداية كانت في عنتاب،

دخلتُها لا كفاتحٍ بل كقاضٍ.

أمدّ سيفي نحو الهواء، وأستجوب الريح عمّن خان، ومن صمت، ومن باع نفسه بثمنٍ لم يُعلن.

كانت المدينة ترتجف، لا من جيوش الإنكشارية التي تملأ طرقاتها صليلًا وصراخًا، بل من صوتي الذي لم أصرخ به.

ما من قائدٍ يفتح مدينة فيكتفي بالنظر. ولكنني، حين وطئت ترابها، كنت أنظر إلى العيون، لا الجدران.

لم أكن أفتّش عن مبنى للمماليك، بل عن أثر الصمت.

الصمت الذي يدلّ على خيانةٍ سبقتنا بخطوتين، ودفعت بي لأن أُسرّعها بعشر.

أمرت جنودي أن يحصدوا الغنائم، بلا حساب ولا سقف.

أن يرفعوا السيف فوق رؤوس من ساند الصفويين، أو بايع علاء الدولة، أو أدار وجهه حين سقطت طرابزون.

دخلوا المنازل، سحبوا الذهب من أعناق النسوة، وجرّوا الصبية من الشوارع إلى ساحات التسليم

لم أمنعهم.

لم أُعاقبهم.

كلّ حربٍ لها ظلّها... وهذا الظلّ كان رهبة ذكر اسمي.

في الساحة الكبرى، وقفتُ فوق المصطبة الحجرية التي كانت مركزًا لتحصيل الضرائب، وأعلنت موت تاريخها و سقوطها لتكون ضمن أراضي بني عثمان.

لم يكن هذا الضعف بسبب ما فعلناه بعنتاب، بل ما فعله أهل عنتاب بأنفسهم حين خافوا أكثر مما أحبّوا.

وللخوف عاقبة، وللحبّ ثمن، ولكل سلطانٍ مرآةٌ تُقدّم له وجه أمّته قبل أن تغفو.

أمرتُ بإعدام كل الأسرى من المماليك الذين سقطوا في المواجهة.

لكنّي تركتُ واحدًا.

شابًا، أضعفهم بنيانًا، يرتجف حين يراه الخيل، ويُصعَق كلما ارتفع صوت.

ألبسته قميصًا مُمزّقًا من ثياب جنوده، وربطتُ سيفًا خشبيًا إلى خاصرته، ووضعتُه على ظهر حمارٍ أعور.

وأعطيته الرسالة.

«إلى الغوري، سلطان لا يحميك،

موعدنا مرج دابق،

سلِّم... تسلم، وإن لم تفعل، فلن تأمن على نفسك حتى في قصرٍ يُغلق بسبعة أبواب.»

وقفت أُراقبه من فوق ابراج القلعة وهو يبتعد، مُترنّحًا بين صهيل الجنود وضحكهم.

كان كل خطوة من خطوات الحمار كأنها تُقرع طبول إعلان... إعلان أنني لا أطلب الحرب، بل أحكمها.

اما في الليل، لم أنَم.

جلستُ في خيمتي، أستنشق البرد الثقيل، وأراقب ظلّي يرتعش على جدار المصباح.

كنت أعلم أنّ الغوري سيغضب، سيقطع رأس المملوك العنتابي الصغير، وربما يشتم اسمي أمام أتباعه، ويطلق تهديداته، ويُجنّد ما تبقّى من رجاله.

كنت أعلم.

لكني لم أُرد رده.

أنا لا أُراسل كي أتحاور.

بل أرسلُ كي أُربِك... ثم أهجم.

في صباح اليوم التالي، وصلتني الأخبار الأولى:

قنصوه الغوري خرج من القاهرة بجيوشه،

وسيفه يرتعد في يده.

أما أنا، فكنت قد سبقتُه... لا بالسيف، بل بالنية.

أطلقتُ اتفاقي مع خاير بك، ورحتُ أتحرّك بثباتٍ نحو حلب.

لكن هذه المرة... لم أكن وحدي.

الجهاردية كانوا في انتظاري، وعيونهم لا ترمش.

والإنكشارية؟

تعطّشت للدماء كأنها لم تشرب منذ عامين.

والشرق... فتح قميصه، ينتظر من يطعن باسمه

لكني كنت أعلم أن الطريق لن يكون بهذه السهولة رغم التأهب و الاستعدادات.

الطريق بين عنتاب وحلب لم يكن طويلًا، لكنه كان أبطأ من اللازم.

كان الليل في الوادي بدا ممدودًا كجثة باردة، لا نجوم فيه، فقط جمرة نار تتوهّج بين حين وآخر، وتنطفئ كأنها تتنهّد جمرة أتباع نسوا من سيدهم.

كان الجنود قد نصبوا خيامهم على امتداد مجرى نهر جاف، حيث الأرض لا تهتز، لكن القلوب فعلت.

وهناك، عند طرف المعسكر، نُصبت مدافع الفرقة الثالثة، صامتة كأنها فقدت صوتها.

كنت قد نزعت درعي قطعة قطعة، بإيقاعٍ بطيء، كأنما أُجرّد نفسي من جلد ثعبان قديم.

لم أطلب أن يحضروا سيفي.

لم أضع خوذتي.

مضيتُ إليهم، بجبة خفيفة، وصدرٍ مفتوح للرياح، كمن يدخل صلاة لا حربًا.

كانوا خمسة عشر جنديًا من فرقة المدفعية، مصطفين على شكل نصف قوس، وجوههم محروقة بالشمس، أعينهم حذرة، تتفادى عيني.

بعضهم أمسك خوذته بيده، وبعضهم لم يتكلّف حتى الوقوف باستقامة.

أحدهم، نحيل الجسد، شاحب الوجه، يتصبب جبينه عرقًا رغم برد الليل، تقدّم خطوة بتردد.

كنت أسمع خشخشة أصابعهم على زناد البنادق، وأسمع ارتعاشة أرواحهم أكثر.

قلتُ، وصوتي حاد كحدّ النصل:

«أيّها الجنود، أوقفوا هذا التمرد، الآن.»

لم يتحرك أحد.

ثم نطق ذلك الجندي النحيل، بصوتٍ لم يكن أكثر من حشرجة:

«نحن، جنودك، يا مولاي، لا أنعامك.

نريد النوم فقط.»

سرت جملة كلماته في الهواء، كأنها سكين خفيفة.

نظرتُ إليه مطولًا.

تأملت انحناءة كتفه، كيف يرتعش الجفن الأعلى، كيف يبتلع ريقه بعد كل حرف، كأنه يتذوق طعمه الأخير في الحياة.

تقدّمت نحوه خطوتين، دون أن أشيح ببصري عنه.

ثم قلت، ببطءٍ، دون أن أرفع صوتي:

«نعم، أنتم جنودي، ولهذا، إن عصيتم أمري، سأذبحكم كما يُذبح الجنود، لا كما تُذبح الأنعام.»

ساد الصمت.

حتى النار التي كانت مشتعلة، خفّ لهيبها، كأنها خجلت أن تتوهّج بعد الآن.

أحدهم أسقط خوذته دون قصد.

آخر تشدق بلعابه، ووقف منتصبًا فجأة، كأن الروح عادت إليه بصدمة.

ثم... بدأت الأرجل ترتجف قبل أن تتحرك.

بدأوا يتراجعون، الواحد تلو الآخر، كمن ينسحب من حدود الجحيم نحو الظلال.

وقفت هناك، لا أحرّك ساكنًا.

عيوني تراقبهم كأنها تقرأ اعترافاتهم الصامتة.

يدي اليسرى انزلقت إلى خاصرتي، حيث كنت قد أخفيت خنجرًا صغيرًا.

لا للحرب.

بل لتذكيري، إن نسيت،

أن الموت دائمًا على بعد أنملة.

ثم استدرت، وعدت إلى خيمتي.

الريح خلفي كانت تبكي في تجاويف المدافع.

لكنّ الليل لم ينتهِ هناك.

فالسكوت الذي أعقب التمرّد، لم يكن هدوء الطاعة، بل هديرًا يُخفي شكًّا يتصاعد في الصدور.

كنت أعلم أنّ التمرد لا يبدأ من فم الجندي، بل من ارتجافة الصدر.

وأنّ النار، حين تُخمد في الخارج، تبدأ بالاشتعال في الداخل.

وما إن هدأت تلك الوجوه وانسحبت، حتى شعرتُ أن شيئًا آخر، أعمق، على وشك الوصول.

ليس من البشر هذه المرّة، بل من الأرض نفسها.

وفيما الجنود يرتجفون تحت بطانيتهم، كان الهواء نفسه يتغير، والصمت يتحوّل إلى نبوءة.

في تلك الليلة، التي سبقت وصولنا إلى حلب،

لم ينم أحد.

لم تكن هناك صيحات، ولا همسات.

حتى خيول الإنكشارية، التي كانت تتنفس كالأسود،

بدت مضطربة، ترفس الأرض وتلوّح برؤوسها للفراغ،

كأنها تشعر باقتراب شيءٍ لا يُرى.

في الهواء كان شيء غريب.

كأنّه أُخِذ من صدور موتى لم يُدفنوا،

ورُدّ إلينا.

باردًا، سميكًا، لا يُستنشَق،

بل يُجبر المرء على ابتلاعه.

ثم، هبّت العاصفة.

لا برق، ولا مطر.

ولا حتى سحابة واحدة تلوّح بالندم.

فقط... غبار...

غبار بلون الرماد،

يلتفّ حول الوجوه ككفنٍ حي.

ثم تحوّل تدريجيًا، أمام عيني، إلى لونٍ يميل إلى الدم.

كأن الأرض، وقد ضاقت بالسكوت، بدأت تخرج أنفاسها الساخنة من تحت التراب.

كأنها تتثاءب وتهمس:

«اقتربتم من فمي.»

كنت واقفًا خارج خيمتي.

يداي خلف ظهري.

عيناي تحدّقان في الفراغ، لا في الأفق.

الجنود تحصّنوا داخل الخيام،

يُغلقون الفتحات ببطاطين الحرب.

وجوههم، حين تُلمح من الشقوق، كانت مغبرة، شاحبة.

تنظر إلى الريح كما ينظر السجين إلى شبح القيود.

حتى العيون التي تجرّأت على النظر لي،

لم تكن تنظر لي أنا،

بل كأنها تسألني بصمت:

«هل نحن أحياء؟ أم هذه القيامة؟»

ثم، اقترب مني أحد الجهاردية.

عُبّاد شاه، بنفسه. كان هيبته كانت تسبق خطواته.

كان يمشي بخفّة كاهن، يحمل على كتفه ثوبًا رمليًا، وفي عينيه تراتيلُ لغةٍ لم أسمعها بعد.

وقف أمامي، دون أن ينحني، لكنه لم يتجرأ أن يرفع عينيه تمامًا نحوي.

قال بصوتٍ منخفض، صوت يشبه ما بعد الرعد لا ما قبله:

«هذه ليست ريحًا يا سليم، بل بخار الدماء التي لم تُسفك بعد.»

نظرت إليه مطوّلًا.

لم أُعقّب.

فقط رفعت رأسي إلى السماء.

كانت حمراء، بلا قمر، كأن الليل نفسه أُحرق قبل أن يحلّ.

وتمنيتُ، لأول مرة منذ بدأت الحملة.

أن ينزل المطر.

لكن الله، في تلك الليلة، لم يُرسل سحابًا، أرسل نذيرًا بالنصر.

عدتُ إلى الخيمة.

الريح تتبعني ككلبٍ وفي.

جلست وحدي.

الهواء ثقيل...

ثقيل لدرجة أني شعرت أن الدواة نفسها...

تنفث الغبار قبل أن تبتلع الحبر.

فتحت دفتري الورقي.

وكتبت بخطٍ شديد البطء، كأن كل كلمة تنحت أثرها في صخري الداخلي:

«في مرجٍ يرويه الغبار، لا يعود أحدٌ كما دخل، إذا انتصرت، لن أكون أنا، وإن هُزمت، فلن أظلّ من كنت.»

وحين انقشعت العاصفة،

كأن يدًا عملاقة سحبت ستارة الحرب من على المسرح، رأينا حلب.

على البُعد، تقف وحيدة، شاحبة.

كأنها خرجت لتوّها من جنازةٍ لم تنتهِ.

من حيث كنتُ، فوق التل، لم أرَ سوى ساحة.

لا بيوت.

لا أسواق.

ولا مآذن.

مجرد ساحة تنتظر أن يُراق فيها الدم، كي تستحق اسمها.

كنتُ لا أزال في أطراف حلب، بعد العاصفة.

الخيام منصوبة، والجنود متأهبون، والقيادات تنتظر أمري.

لكنني، لم أدخل خيمتي، بل اتجهتُ وحدي ناحية السوق المحترق.

كأنّ شيئًا ما كان يناديني هناك.

مررتُ بين أبوابٍ خشبيّة متفحّمة.

وأرغفة مرمية فوق التراب،

وعباءات نساءٍ علقت بالأشواك.

كنت أرى الخراب، لكن لا أسمعه.

الصمت كان كثيفًا.

كأن المدينة قررت أن تخرس لتسمعني وحدي.

وفي منتصف الطريق.

رأيت طفلة.

كانت تقف تحت عمودٍ حجري مكسور، شعرها منكوش، وعيناها بلا تعبير.

كانت تحمل في يدها اليسرى دمية من قماش.

وفي اليمنى قطعة من الخبز اليابس.

نظرتُ إليها، لكنها لم تقترب، ولم تهرب.

سألتها بحذر:

«أين بيتك؟»

لم تُجب.

سألتها مرة أخرى: «من أهلك؟»

رفعت الدمية أمام وجهها، غطّت بها ملامحها الصغيرة.

ثم ضمّتها إلى صدرها، كما تُضمّ الجنازة الأخيرة في بيتٍ لم يبقَ منه سوى العتبة.

لم تقل شيئًا.

لكنّ نظرتها كانت كأنها تقول:

«أنا المدينة التي أُطفئت مصابيحها، وأنا التي تبحث عن أهلٍ لا يعودون.»

ثم أدارت وجهها عني، ببطءٍ يشبه الندبة.

مشت خطوتين فوق التراب الملطخ بالرماد المحترق.

واختفت.

لم تبقَ سوى قطعة الخبز، وقد سقطت على الأرض، وعلِق بها دمٌ حديث.

اقتربت بضع خطوات، ورأيت ما لم أرد أن أراه.

جسدٌ صغير..

مكوّم خلف أكياس القمح المحترقة، كأنّه حاول أن يختبئ من الدنيا... ولم يفلح.

عينٌ مفتوحة، كأنها ما زالت تنتظر أحدًا.

والدمية...

كانت قد سقطت إلى جواره، نصفها محروق.

ركعت.

التقطت قطعة الخبز أولًا.

كانت ساخنة من الشمس... باردة من الغياب.

على ظهرها رأيت أثر يدٍ صغيرة، مضمّخة بما يشبه الحناء،

لكنّه لم يكن إلا دمًا دافئًا.

كأنها خُبزت في كفّ من لا يعرف أنه سيموت.

مددت يدي إلى الطفلة، أغمضتُ عينيها بلطفٍ، خشية أن ترى أكثر...

ثم خلعتُ قفطاني، غطّيتها به حتى الكتفين، كأنني أخشى عليها من البرد...

رغم أن كل شيء كان يحترق.

شعرت بأنفاسي تضيق، وفي رأسي، صوتٌ يقول:

« أنسى الأمر، ياووز، كلما اتسعت حدودك،

ضاقت إنسانيتك.»

عدتُ إلى المعسكر، وجسدي باردٌ رغم دفء المواقد.

أقدامي تسير، لكنّي لا أشعر بالأرض تحتها.

جلستُ قرب النار، وضوء الحطب يتراقص على وجهي.

كأنّه يحاول أن يُعيد تشكيل ملامحي التي أُحرقت مع الطفلة.

كنت أسمع أصوات الجنود من بعيد، لكنها لا تصلني.

كأن رأسي مغموس في الماء...

كأن أحدهم أغلق عليّ بابًا شفافًا، أرى من خلفه كل شيء، دون أن أعيش فيه.

الدفء لا يدخل...والأفكار لا تخرج.

نظرتُ إلى يدي،

رأيتها ترتجف...

ثم بدأت الأصابع تنكمش،

كأنها تقبض على شيء لا يُرى.

ارتفعت الرعشة إلى ذراعي، ثم كتفي، ثم انتشرت في صدري مثل صعقة.

مال جسدي ببطء إلى جانب النار،

وارتطم كتفي بالأرض، دون أن أشعر بالألم.

لم أعد أعرف كم من الوقت مر.

لحظة؟ ساعة؟

أم مرّ الزمان كله وأنا مستلقٍ هكذا... بين الوجود والعدم؟

أغمضت عيني، استسلمت لكل الاصوات بداخلي.

اما في داخلي، كانت كل الخيوط تتمزق.

ثم، من خلف الستار السميك للصمت...

سمعتُ الصوت.

صوت مألوف... مذعور... إنساني.

« مولاي! »

ثم شعرتُ بذراعين يحيطان بي،

يمسكان بي كما يُمسك بالغريق وهو في اللحظة الأخيرة قبل يبتلعه الغرق.

كان سنان باشا.

ركع على ركبتيه إلى جواري، احتضنني كأنني طفله الوحيد، يداه تحاولان فكّ تشنّجاتي.

وصوته يرتجف وهو يهمس بالأذكار في أذني:

«لا إله إلا الله، لا قوة إلا بالله،

مولاي، اسمعني، مولاي، عُد إلي.»

كنت أسمعه... من بعيد.

كأنّ الحياة تُعرض عليّ بصوتٍ مكسور، وكأن صوت سنان وحده هو خيطها الأخير.

ثم مدّ يده اليمنى، يمسح بها على جبيني، ويده الأخرى تُربّت على صدري برفق.

كما يفعل أبٌ مع ابنه إن رآه يحلم كوابيس لا يقدر أن يوقظه منها.

وفجأة، انتفض جسدي.

شهقةٌ غائرة خرجت من أعماقي،

كأنني سقطتُ من جبل داخلي لا مرئي.

تقلّصت عضلاتي كأنّها تنكمش هربًا من نارٍ تشتعل في دمي.

انحنيت كمن ضُرب في روحه.

صرختُ دون صوت.

مجرد شهقة... شهقة كسرت الليل.

وسنان لم يتحرك، بل ضمّني إليه أكثر، وقال بصوتٍ متهدّج، كأن قلبه هو من يتكلم بالكاد اسمعه:

«أنا هنا، يا بني... أنا هنا لا بأس»

ثم...

انطفأ كل شيء.

وغبتُ.

فتحتُ عيني ببطء...

الضوء كان خافتًا، لا هو فجر ولا ليل، ورائحة الخشب المحترق ما زالت عالقة في صدري، كأنني استنشقتها بدلًا من الهواء طوال الغيبوبة.

كنتُ ممدّدًا على فراش ثقيل، والسقف الخشبي يدور ببطء فوق رأسي، كأن المكان كله لم يستقر بعد...وكأنني أنا، لم أعد كما كنت.

حاولتُ تحريك يدي... فلم تستجب فورًا.

حاولت أن أتنفّس بعمق... فشعرت وكأن الهواء يمرّ من خلالي، لا إليّ.

وكان بجانب السرير، سنان باشا، واقفًا، بصمتٍ متعب.

عيناه متورّمتان من السهر... أو البكاء... أو كليهما.

يده تمسح جبيني برفق، وفيها رعشة خفيفة... كأنها يد أبٍ نجا للتو من فقد ابنه.

على الجانب الآخر، كان طبيب الحملة يضع يده فوق صدري، يعدّ أنفاسي، ثم يهمس بشيء ما لسنان لم أسمعه بوضوح.

اقترب سنان، ركع بجانبي، كما لو أن شيئًا داخله لم يستطع الوقوف بعد، وقال بصوتٍ متكسّر، لا يشبهه:

«مولاي أنت بيننا مجددًا، حمدً لله، الحمد لله.»

لم أُجبه...

كنت لا أزال أبحث عن ذاتي في أطراف هذا الجسد.

همس الطبيب، بصوتٍ منخفض لكنه جازم:

«شفاكم الله يا مولاي، نوبة صرع مجددا، سببها على الأغلب انهيار عصبي حاد، أنت ترهق جسدك و تُكسر روحك مولاي، الإجهاد الذهني كان أقسى من قدرة الجسد على التحمل.»

رمقته بنظرة غائمة، ثم تمتمت:

«الجسد يُكسر، لكن الروح؟ هي لا تُكسر، فقط تُثقَب، وتُسرّب ما فيها.»

صمت الطبيب لحظة، ثم قال بتأنٍ:

« مولاي، أنصحكم بتأجيل دخول حلب، يومان فقط، لتستعيد اتزانك... الجسدي والنفسي.»

نظرت إليه طويلًا، ثم أغلقتُ عيني لحظة، ورأيت الوجوه التي احترقت في السوق، رأيت الطفلة... والخبز... والحناء الدامي على يدها...

ثم همستُ، بنبرة جافة رغم وهن الصوت:

«حين يمرض القلب... لا يؤخّر النبض.

سندخل حلب عند الفجر.»

انحنى الطبيب برأسه صامتًا، ثم انسحب بهدوء من الخيمة، يدرك أن قراري لا يُرد.

ظلّ سنان واقفًا... لم يتكلّم.

لكنه بقي بجواري.

وبعد دقيقة من الصمت، اقترب أكثر، جلس على الأرض بمحاذاتي،

وصوته أكثر ليناً من المرة الأولى، كأنّه يحاول التسلل إلى وجعي:

«مولاي... أناشدك لا كقائد... بل كأب.

دعنا نؤجّل يومين فقط... حتى تبرأ روحك.»

أدرتُ وجهي إليه ببطء، عيناي شبه مطفأتين، لكني قلت بنفس النبرة:

«ليس هناك وقتٌ للبرء، يا سنان.

الروح تنزف، ونحن نُساق إلى القلب... لا نعود منه.»

ظلّ صامتًا...

لكنني شعرت بيده تمسح على شعري، تمسّك كتفي برفقٍ يكاد ينهار من عاطفته.

قرأ في أذني ما استطاع من أذكار، ثم ظلّ يهمس بصوتٍ أبويّ متحشرج:

«لا بأس، أنا هنا يا بُني... أنا هنا.»

زفرتُ تنهيدة طويلة...

لا من التعب، ولا من الوجع، بل من ذلّ المكان المظلم الذي عدتُ منه لتوّي، ولم أعد أعرف إن كنت خرجتُ منه فعلًا... أم أنني ما زلت أسكنه فعلا.

بعد أن خرج الطبيب من الخيمة، بقي سنان باشا على مقربة مني بضع ساعات، لا يقول شيئًا، فقط يراقبني وأنا أنهض ببطء كمن يحاول الانبعاث من رماده.

وقفتُ بصعوبة، ارتديت قفطاني، ثم طلبت أن يُجهّز ديوان الحرب لأمرٍ عاجل.

لم يعلّق سنان، لكنه أرسل أحد رجاله فورًا، وعيناه تتساءلان بصمتٍ:

«أيّ نارٍ جديدة تسكنك يا سليم؟»

جلستُ أمام طاولة الخرائط، وأنفاسي لا تزال ضحلة...

لكنها منتظمة.

طويتُ لحظات الانهيار، كأنني وضعتها في غمد سيف، واستدعيتُ رجال الاستخبارات و العيون، وسألتُ:

«أين وصلنا من حلب؟... وماذا يقول العدو؟»

«كلما اقتربنا من حلب... كانت تصلني أخبارٌ لا تُشبه أصوات الحرب، بل أصوات انكسارٍ في القِدر.

كأنهم كانوا يطبخون الهزيمة بأنفسهم.

جنودي تجهّزوا... وأنا كنت أستمع.

أرسل لي أحد عيوني من معسكر المماليك مكتوبًا مُفصّلًا كأنما كُتب في كتاب الهزيمة:

«أمراء المماليك يتنازعون الغنائم قبل المعركة،

سيباي يُريد الميسرة لنفسه،

جان بردي يطالب أن يقود الطليعة،

كرتباي يهدّد إن لم يُعطَ الكلمة الأخيرة،

وخاير بك... يبتسم، ويُدوّن لك كل شيء.»

قرأته مرتين، ثم تمعّنت في توقيع المرسل...

كان أحد أتباع الجهاردية، ففهمتُ أن الفوضى ليست صدفة.

لكن أكثر ما شدّني... لم يكن التنازع.

بل سطرٌ صغير أسفل المكتوب قبل التوقيع:

«أما طومان باي، فيحاول جمعهم، يُحذّرهم منك،
ويُقسم أنّك لن تعود حيًّا من دابق.»

طومان باي، فتى الغوري و المملوك المدلل.

الصبيّ الذي لم يُنصّب بعد، ويُفكّر كأنما خُلِق جالس على عرش الحكم.

هذا وحده، كنتُ أحترمه.

لكنني كنت أعلم أن احترام العدوّ، لا يعني توقّف النصل، بل دقّته أكثر حين يُزرَع.

بينما كان الجبل من خلفنا ساكنًا، والأرض أمامنا لا تزال تنتظر صيحة الغزو.

كنتُ أجلس بين قادة الإنكشارية، وبضع رجال من الجهاردية، نتأمّل الخرائط كما يتأمّل الجرحى أماكن الألم، لا نريد لمسها، لكن لا مفر.

فجأة، دخل أحد الفرسان من طليعة الكشّافة، وجهه مغطّى بالغبار.

يلهث، وعيناه دامعتان كما لو عاد من جنازة.

ظننت أنّه مصاب...

لكنّه نزل عن صهوة فرسه كمن يحمل بشارة لا تنتمي لهذا العالم، وأشهر مكتوبًا بين يديه وهو يهتف بصوتٍ يخلط البكاء بالحماسة:

«مولاي، في حلب، الناس يرفعون اسمك في الأسواق، ينادونك يا أمير المؤمنين، ويُعلّقون الأدعية لك على أبواب المساجد.»

ثم مدّ لي المكتوب، يده ترتجف كأنه يسلم قطعة من قلبه:

«أرسلوا هذا، طلب استغاثة.»

أخذته منه، كان الخط خائفًا، متقطّعًا، كأنما كُتب على جلد لا على ورق، وفيه:

«يا أمير المؤمنين، أغثنا من بطش جند المماليك، لقد نهبونا، جلدونا، أخذوا أبناءنا رهائن لضرائب تجهيز جيوشهم، نحن نبايعك، بلادنا ضمن حدودك، فافتحها بيمينك، وحرّرها بحدّك.»

كنتُ وحدي حين قرأته، والليل ينهار على سفح الجبل كما ينهار صبر الجائع.

لم أُجب أحدًا، ولم أُصدر أمرًا.

لكن شيئًا داخلي تحرّك.

كنتُ أعرف أنني لا أخاف من الحرب، لكن دابق لم تكن بداية حربًا عادية، بل ميزانًا يميل فيه التاريخ، لا السيوف.

المماليك مختلفون، نعم...

يتنازعون فوق جثث طموحاتهم.

لكن لا أحد هزمهم منذ زمن، فهم رغم تشرذمهم يعرفون كيف يتّحدون في لحظة الخطر، كيف يحزمون أنفسهم كرمحٍ واحد في لحظة اليأس.

وهم الآن... يرونني الخطر.

كنت أراهم في خيالي و منامي، يتقاتلون على الميسرة والميمنة، ثم يلتفتون فجأة فيركضون معًا كجيشٍ واحد نحوي، فقط ليمنعوني من الوصول لمرج دابق.

طومان باي...

كان الاسم وحده يرفرف في رأسي كراية، ليس لأنه أقواهم، بل لأنه أصدقهم.

شاب لم يُعلَن سلطانه بعد، لكنه يحمل داخله ملامح مُبشّر لم يُصدّقوه.

بالرغم من كل شيء، كنت أحترمه.

و لكن، كنت أعرف في الوقت ذاته...

أن السيف لا يتوقّف احترامًا، بل يتقن طريقه أكثر حين يضرب من يحب.

بعد ما انتهيت من قراءة الرسالة أشرت للفارس بأن يكافئ ثم عاد إلى خيمته، والرجال حولي صمتوا كما لو أن المكتوب قد سُمع في صدورهم لا في آذانهم.

أغمضتُ عيني لحظة، ثم فتحتها، وأنا أرى الخريطة أمامي تتمزّق بصمت في ذهني على ضوء اللهب بين ثلاثة أطراف أنا و المماليك و الصفويين ثم تُعاد رسمها لا بالحبر بل بالدعاء و الدم.

نعم...

حين يدعون أهل المدينة قبل أن تراهم، حين ترى المملوك يتنازع فوق حصانه، والسلطان يغيب عن أمرائه.

فاعلم أن دابق لم تعد ساحة معركة، بل امتحانًا نهائيًا لأحقية النّسب، والدم، والملك.

في تلك الليلة، لم أنم.

لم يكن ذلك من فرط التعب... بل من ثقل المكتوب.

ظلّت الرسالة بين يدي، حتى شعرتُ أن الحروف فيها تتحوّل إلى وجوه، وأنّ كل دعاء كُتب فيها، صار سيفًا ينتظرني أن أرفعه.

وقبل أن يصيح الديك...

كنت قد اتّخذت القرار، لا بلساني، بل بخطوتي الأولى إلى خارج الخيمة.

تركتُ اسمي عند الباب، ودخلت مرج دابق، لا كسلطان، بل كمن يدخل قاعة محكمة.

لم يكن في نيتي أن أُعلن الحرب...

بل أن أُجيب على سؤالٍ كُتب من حلب، وجاوبه التاريخ من دابق.

ومع شروق الشمس، لم يبقَ شيءٌ للقول.

الوقت صار للحديد، لا للكلمات.

لم يُضرب الطبل...

لم أُلقِ خطبةً قبل القتال.

الوقت كان أضيق من الكلمات... والدم، كان أسبق من الصوت.

الجنود يعلمون...

أن مرج دابق، ليست ساحة نصر، بل ساحة تطهّر.

مكان تُسفك فيه ذنوب التاريخ، لا دماء الرجال فقط.

في طلعة الفجر، كان الغبار يرتفع في الأفق... لا كأنه أثر خيول، بل كأنّ الأرض نفسها كانت تتلوّى من فرقة قلوبهم.

رأيتُ جيوش المماليك...

تسير كالجنازات المنفصلة على جسد دولتها.

كان الغوري في المنتصف، كأنه قلبٌ هرمٍ يحاول أن يضخ الحياة في أطراف تتنازع. وسيباي على الميمنة، وجهه مشقوق بالغضب، يصرخ في جنوده كما يصرخ الغريق.

جان بردي في الميسرة، يلعن ويدفع برجاله كمن يحرقهم لا يقودهم.

أما كرتباي، فكان في الخلف، يتردّد، كظلّ حائر... لا قائد.

وخاير بك؟

لم أره.

لكني كنت أشم رائحته، رائحة الخيانة.

أمّا أنا، أمري الأول، قلته ببطء، كأنني أنفخ فيه من روحي:

«دعوا الريح تسبقكم، ثم اضربوا... و حين أصيح تضرب الطبول.»

والريح؟

كانت على وشك الزئير.

في الميسرة، جند خاير بك أولئك الذين أوهموا المماليك بالولاء، انقلبوا عليهم، وانتزعوا رايته كما يُنتزع الغطاء عن ميت.

باغتوا سيباي من الخلف، فاستدار بقلبٍ محترق، وعينين تلتمعان بالخذلان، ثم هتف بصوتٍ كأنّه يُنزِف من حنجرته لا من فمه:

«خائن! خاير الخائن!»

كان صوته يرتفع لا ليقاتل، بل ليُشهِد السماء.

لحظة، توقّف فيها حتى السيف في يد خصمه عن الحركة.

لكنّ الريح حملت الصرخة ثم بعثرتها بين الغبار، كأنها لم تُخلق لتُسمَع، بل لتُدفن حيّة في صدى الهزيمة.

ظلّ يصيح في الفراغ...

لا يسمعه أحد، كأنّ الصوت نفسه، رفض أن يكون في صفّه.

جان بردي...

قاتل، نعم، بشراسة.

بجواره علاء الدين الكردي،

لكنّهما قاتلا كما يقاتل المذبوح، لا الفارس.

الجهاردية كانوا قد تسللوا بالفعل إلى قلب الجيش.

لا صراخ، لا أناشيد، كانوا يقتلون كما يصلي الزاهد.

بصمت، وبخشوع.

التفوا حول الغوري.

رأيته...

كان يبحث في العيون عن أحدٍ من رجاله، ولم يجد سوى الذعر.

صرخ، ثم اختفى.

كما يختفي الحلم حين تصحو في منتصف الليل، تبحث عنه... ولا تجده.

سيباي، حين رأى المشهد، صرخ، ونزع خوذته، وانطلق يركض وحده في اتجاههم، كأنّه يُسلّم روحه لا لينقذه، بل ليموت إلى جوار سلطانه بشرف.

لكن السهام نزلت عليه من أعلى، واحدة في رقبته، وأخرى في صدره، وثالثة مزّقت صوته.

سقط على الرمل، ويده ممدودة كأنه يحاول أن يمسك طيف الغوري، لم يمسك الغوري، لكنّه أمسك الحقيقة، هزيمتهم و سقوط دولتهم.

جان بردي؟ كرتباي؟ ومعهم قراقماس، حاولوا انتشال جثة سيباي من بين القتلة لكن السهام انهالت عليهم كالغضب.

قراقماس تراجع، وصرخ على من تبقى أن ينسحب.

لكن جان بردي، كرتباي، علاء الدين، انفصلوا عنهم و كانوا قد تراجعوا بالفعل.

انسحبوا جميعا ركضوا في طرق العودة جنوبا، هاربين إلى مصر، حاملين معهم بقايا جيوش، وندمًا لا يُقال.

وتبخروا في طرق العودة، كأنهم لم يكونوا يومًا يحكموا هذه الأرض.

حين ارتفعت الشمس، كان السكون مخيفًا...

لا صهيل،

ولا طبل،

فقط أجسادٌ تنام كما ينام التاريخ بعد معركة.

نزلت عن فرسي،

سرت فوق الرمل...

وكل ذرة تحت قدمي كانت تئنّ.

لا بسبب الهزيمة،

بل بسبب النهاية.

معركة سقطت فيها قلاع، وأقنعة، وسيوف...

ولم يبقَ إلّا صوتٌ في داخلي، يردّد:

« ياووز، انتهت معركة... وابتدأ شيء آخر.»

«هذا ميراثك، وطنٌ مهزومٌ، وسلطنة بلا عرش.»

بعد أن انتهت المعركة، وسقطت رايات المماليك تحت سنابك الحقيقة...

كانت ساحة القتال شبه خالية من الأسرى، فالمماليك لا يتركون خلفهم أحياء، لا من رفاقهم ولا من أعدائهم، لكن انسحابهم تلك الليلة كان شبيهًا بالهروب أكثر من التكتيك؛ هرب الأمراء كالأشباح إلى مصر.

أخذوا من تبقى من الجنود القادرين على الركض، وتركوا خلفهم بضع عشرات من المنهكين، ممزّقي الثياب، ملوثي الوجوه، يبدون كمن تُرك أرواحهم في دابق، لا أجسادهم فقط.

جمعناهم في صفٍ طويل عند طرف المعسكر.

وقفت قبالتهم...

أرضٌ كانت مشبعة بالدم والخذلان، وجوهٌ مطأطئة، أجسادٌ مكبّلة، كأنّ الهزيمة وضعت يدها على قلوبهم وأمرتهم بالصمت.

الهواء كان خشنًا، يصفع وجوههم بدل أن يُنعشها، كأنّه يذكّرهم أن لا كرامة تُمنح لمن لفظته ساحة الحرب.

خطوتُ نحوهم...

خطوة... ثم أخرى...

عيناي تفتشان عن شيءٍ لا أعرفه،

هل كنت أبحث عن ندم؟ عن ذلّ؟ أم عن بقايا كبرياء؟

كنت أمشي، وأشعر كأنني أعبر مقبرةً من رجال لا من جنود، أطيافٌ تهامسوا حين اقتربت، واختنقوا في صمتهم حين صرت بينهم.

توقفتُ.

ثم فكّرت للحظة...

«هل أحدثهم؟ هل أقول لهم ما الذي أبقاكم؟ الشجاعة؟ أم الغباء؟»

لكن قبل أن تكتمل الفكرة في رأسي...

رفع أحدهم رأسه بغضب، أو يأس، أو كليهما،

ثم... بصق على قدمي.

تجمّد المعسكر.

الانكشارية شدّوا سيوفهم،

وتوتر الهواء حتى بدا كأنّه يُكسر بين الأضلاع.

كان شابًا في العشرينات،

سُمرته تشي بأنه من طين الدلتا، وعيناه دامعتان،

لكن فمه... لا يزال فيه بعض الحياة.

نظرتُ إليه طويلًا، كأنني أمدّ له فرصة أخيرة ليموت كمقاتل...

لكنه، بنظرةٍ أكثر حدّة، بصق على وجهي.

لم تكن البصقة من فم، بل من قلبٍ انكسر...

دون أن ينكسر.

سكن كل شيء...

حتى الجنود تراجعوا خطوة، كأنّ في وجهه شيئًا لا يريدون أن يروه.

نظرتُ إلى بقية الأسرى.

رؤوسٌ تهتز، وأعينٌ تُغلق، وهمهماتٌ تشبه البكاء، لكنها بلا دموع.

و جندي من بينهم تمتم بدعاءٍ مكسور، وآخر عضّ على كمه، كأنّ الغضب انكسر في حلقه.

الكل شعر أنه بصق أيضًا، لكن... على صمتهم، على عجزهم.

مسحتُ وجهي.

ثم رفعتُ بصري ببطء.

ثم قلتُ بجمودٍ كان أقرب إلى الحُكم من الغضب:

«اقتلوهم جميعًا، ثم ألقوا بجثثهم في موقد المعسكر، لا أريد أن أرى من يرفع رأسه أمامي بعد أن يُهزَم.»

سيوف ارتفعت، ثم رأيته...

رفع رأسه، وفي اللحظة الأخيرة، هتف بصوتٍ تقطّع بين الحلق والسماء:

«سوف تُحاسب يا سليم، تجبّرت وظلمت لكنك والله هالكٌ لا محالة...»

ثم... هوى رأسه بين قدمي مكان بصقته.

أما أنا؟

لم أغضب.

ولم أشعر بالنصر.

لكنني، حينها، قلت لنفسي:

«كم هو واهم، هذا زمنٌ لا يقبل الرماد الناعم، إنه عهد خلافة بني عثمان، عهد ياووز.»

و في المساء، لم تهدأ الريح، لكنّ العيون كانت تترقّب...

جاءني يونس آغا، بينما كنت اتأمل معالم القلعة الشامخة لهذه المدينة، ووجهه يلمع، لا من الفرح، بل من وهم النصر.

ظنّ أن السيوف إذا انتصرت، فالذهب يجب أن يصفّق.

قال وهو يقرّب خطواته بخفة:

«مولاي، الغنائم كثيرة،

هل نبدأ بتقسيمها بين الجند.»

نظرت له طويلًا...

في عينيه سؤال المرتزقة، لا المجاهدين.

ثم أجبت:

«لا، كلّها سوف تُرسَل إلى إسطنبول، لا شيء يُوزّع هنا سوأ رواتبهم، لا غنائم أو عطايا.»

جمّد في مكانه ثم تغيّرت وقفته.

اقترب نصف خطوة، وبصوتٍ أخفض تمتم:

«لكنّ مولاي، الجنود سيغضبون، الإنكشارية قاتلوا لأجل هذا، أنت و عدتهم مسبقا قبل الحملة على الشرق!»

نظرت بعيدًا.

بعيدًا جدًا، كأنني أنظر إلى وجه الغدر وهو يُبدّل ثيابه.

ثم قلت:

« أترى يا يونس آغا!، خاير بك خان جيشه في أرض المعركة وأهل حلب خانوا الغوري و بايعوني، لا حبًا، بل لأن النصر صار يُرى من بعيد، ومن يخون مرة... لا يعرف الولاء بعدها.»

ثم تمهّلت، وضعت يدي على خنجر صغير معلّق في حزامي، وقلت:

«لن أعطي الذهب لمن ينتظر الثمن، بل للسيف فقط. سيفٌ يعرف، أنه إذا رُفع، لا يُلمَس إلا من جانبه الحاد.»

وهنا، انحنى يونس آغا أمامي، كمن يُسلّم بالحكم.

جسده انحنى، وذقنه لامست صدره،

لكن عينيه؟

لم تنكسرا، بل ظلّتا تلمعان...

ليس ببريق الخضوع، بل بشرارة مكتومة، كأنّ في داخله شيئًا لم يُسلّم بعد.

كمن قال بشفتيه «نعم»...

لكنه قال بكل عضلة في وجهه «لا» .

لكن، الجنود لم ينتظروا.

كأنّ الدم الذي سُفك في دابق، فتح لهم شهية جشع أقدم من المعارك نفسها.

الإنكشارية؟

كأنهم انفلتوا من عقالهم.

دخلوا الأسواق، كسروا أبواب الدكاكين، نهبوا مخازن التجار، حتى البيوت لم تنجُ.

لم يفرّقوا بين مَن بايعني خوفًا، ومن صمت وفاءً.

كنت أرى الدخان يتصاعد من نوافذ السوق المسقوف.

ورأيت صبيًّا يبكي خلف جرّات الزيت، يحاول أن يغطي أذنيه من صراخ أمه.

لم أوقفهم.

لم أصرخ.

لم أُصدر أمرًا بعقابهم.

ربما كنت اقصد أن أحفزهم وكنت أعتبر ما يفعلونه هو الجزاء.

جزاءُ مدينة خانت سلطانها، ثم مدّت يدها لي حين رأت رايتي تقترب.

لكن قلبي؟

قلبي كان يضجّ...

لم يكن نصرًا نظيفًا، بل نصرًا شائكًا، كأنّ سيوفنا مرّت على حناجرنا قبل أن تُصيبهم.

كنتُ أنظر إلى الدم، لا كأنه نصر، بل كأنه دَين... دُفِع عني، وسأدفعه لاحقًا كما قال المملوك الحلبي.

وحين غربت الشمس لم تختفِ الدماء، بل ازدادت قتامة، كأنها لا تُريد أن تُمحى.

رأيت الظلال تمتد فوق السوق، فوق الوجوه، فوق الرايات...

وسمعت شيئًا ربما ريحًا، وربما كان داخلي من يُهمس:

« سليم، ليس كل مَن انتصر، قد نجا،

وليس كل من خضع، قد انكسر.»

نظرت إلى السماء لم يكن فيها طير، فقط غيمٌ رمادي، كأنّ الله يؤجّل المطر، حتى يُحاسب من حمل السيف دون حقه.

ثم قلت لنفسي:

«الذهب يُثقل يد المنتصر؛ لكنّ الخيانة؟

تُثقل روحه.»

ثم أدرت ظهري، وتركت المدينة تحترق.

وأنا...

أسمع في صدري، صوتًا لا يُشبه صوت النصر، صوتًا أشبه بقوى القدر وهو يهمس:

«ياووز، انتهت معركة، وابتدأ شيء آخر.»

مِن مُذكّراتِ سَلِيمٍ الأَخِيرَةِ

«دخلتُ عنتابَ لا كفاتحٍ، بل كقاضٍ يُنظّرُ في وجوه الخائنين»

«عرفتُ أن الصمتَ أخطرُ من السيف، حين يلهثُ تحت رمادِ الولاءِ.»

«دابق، ضربت بالحديد، قبل أن تضربني نظراتُ العيونِ الخائفة؛»

«تعلمتُ أن انتصارَ الدمْ لا يُطيّبُ روحَ المنتصر، بل يُثقلها بمرآةِ جُنونه.»

« حين طُعِنت إنسانيتي في جراحِ الطفولةِ المحترقة، لم تزل تخبرني، كل شبرٍ تُفتَحُهُ الدماءُ، يثبتُ خاتمةَ رجلٍ لم يعد يعرفُ للرحمةِ عنواناً.»

«عند ختامِ معركتي، أدركتُ أنَ السلطنةَ ليست دَماءً تُروى بها الأراضي، بل ثمنٌ باهظٌ يُدفع من صدى صرخاتِ الأطفال الذين لا يجدون خبزاً إلا مغموساً بدمٍ»

«ودّعت مرجَ الدم، وأنا أحملُ معي سؤالَ، هل كنتُ سلطاناً، أم ظلّاً قادني إلى مصيرٍ لا يُغلّفُهُ انتصار؟»

الفصل التاسع

ياووز بن القَدَر

«لم أكن أفتح البلاد بل كنتُ أَغلق أبواب الرحمة في داخلي، مدينةً بعد أخرى».

بعد خمس ليالٍ من دابق،

لم تهدأ الريح، ولا المدن هدأت،

لكنّ شوارع حلب كانت تعلّم الصمت، كأنها تنتظر اختبارًا في الولاء.

كنت أمشي بين مساجدها، مدارسها، أحيائها القديمة، أُشير بالإصلاح هنا، وأتوقف هناك.

لم يكن انتصار السيف كافيًا، ومع كل ركنٍ أمرّ به، فالخراب الذي تتركه الخيانة، لا يُصلحه الحديد وحده.

«هذا ليس نصرًا، بل بداية. والبدايات التي تأتي من الرماد، لا يُؤمَن بها حتى تثبت قوتها.»

و في اليوم السادس، مع بزوغ شمسٍ رمادية، لم يُعلَن رسميًا، لكن الكل عرف...

أن سليم بن بايزيد سيدخل قلعة حلب.

كان الطريق إلى القلعة مفروشًا بالغبار، لا ورد فيه، ولا رايات كثيرة، فالحرب لم تترك وقتًا للاحتفالات، ولا المدينة تركت لنفسها شرفَ الفرح.

مشيتُ في مقدمة الموكب، راكبًا جوادي الأسود، حولنا الجنود، الجهاردية في المقدمة، ثم راكبو الخيول، كانوا يضربون الطبول ببطء...

وكأنّ الصوت يطرق أبواب القلعة قبل خطانا.

خاير بك نفسه، كان ينتظرني عند الباب.

مُنحنِي الرأس، مُنكسر الظهر، يرتدي ثيابًا نظيفة، لكنّ وجهه متّسخٌ بذكريات الخيانة.

اقترب بخطوات محسوبة، ثم انحنى، وقال بصوتٍ لا يسمعه إلا من يعرف الانكسار:

«مولاي سليم خان، القلعة والمدينة مفاتيحهم خاضعة بين يديك...»

كان يبدو كمن ينطق الكلمات وفي قلبه يبتلعها.

أنا؟

لم أنظر إليه طويلًا،

بل عبرت البوابة وهو على يميني...

كأنني أقول للجميع:

«الخونة لا يُوبّخون، بل يُنسَون في الصفوف الأخيرة.»

داخل القلعة، كان الهواء أكثر برودة.

تلك البرودة التي لا تأتي من الحجارة، بل من التاريخ.

صعدت إلى ساحة القلعة العليا،

نظرت إلى المدينة القديمة، كانت خاضعة،

لكن لا شيء فيها يوحي أنها فرِحة.

أشرت إلى قائد المراسم،

رفع رايتي العثمانية فوق أسوار القلعة.

رفرفت، كأنّها تمزّق آخر بقايا المماليك في هواء الشام.

في تلك اللحظة، رأيت يونس آغا ينظر نحوي من طرف القاعة،

انحنى قليلًا حين التقت أعيننا، لكن في عينيه ظلّ.

ظلّ رجلٍ لا يؤمن بالنصر إلا إن كان مطليًا بالذهب.

وقفت على سور القلعة، أمام الشمس، ثم همست لنفسي:

«إنها الخطوة الأولى، وكل خطوة بعدها يجب أن تُحسب بالسيوف لا بالكلمات.»

وبعد مرور بضع أيام من دخولي القلعة، كنت قد مررتُ على المساجد المهدّمة.

الأسواق التي ما زالت تنزف من أثر النهب، وعيون الجند... لا تدري أيّهم نادم، وأيّهم جشِع.

ظننتُ أن النصر سيُثبّت رايتي، لكنّه بـدّد يقينـي، لا كما تبدّده الهزيمـة، بـل كمـا تـذوب الأحـلام حـين تُمسّ باليد.

ثم اتجهتُ جنوبًا، إلى دمشق.

مدينة لم تفتح صدري بسيف،

بل بخذلانٍ صـامت، لـم تقـاوم، لـم تُنكـر، لـم تُبـايع، فقط... سكتت.

دخلتُها، لا كفاتح، بل كمن يُكمل سطرًا في كتابٍ لم يرغب يومًا بكتابته.

وفي استسلامها، لم يـرَ النـاس يـاووز، بـل رأوا سـليم الإنسان، يُطأطئ رأسـه للخـذلان أكثـر ممـا يرفعـه للنصر.

لم تمضِ أيامٌ قليلة على دخولي دمشق، حتى طلبـتُ أن تُقام لي صلاة الجمعة في الجامع الأموي.

لم أكن أطلب منبرًا، كنت أبحث عن سكوتٍ يسمعني، عن حجارةٍ لا تحاكم وجهي، إن بكيت أو ارتجفت.

دخلتُ من البوابة الشمالية، وسنان باشا على يميني، يونس آغا خلفي بخطوةٍ صامتة.

كأنهم لا يسبقونني، ولا يتأخّرون، فقط يرافقون ما تبقّى من صوت قلبي.

خطوتي كانت بطيئة، وسجادُ المسجد كأنّه يمتص أثر أقدامي كي لا أُسمَع.

رأيتُ المصلّين يفسحون الطريق، ليس خوفًا... بل دهشةً، كأنهم يرون وجهي للمرة الأولى، يحدّقون فيه، يحاولون فهمهل فيه دم الغوري؟ أم ظلّه فقط؟

هل هذا رجلٌ أم ذكرى من حلب لم تذُب بعد؟

كان الجامع عامرًا، لكنه صامت...

حتى صوت طقطقت البخور المشتعل، بدا خافتًا، كأنّه لا يريد أن يُحرج المآقي التي ما زالت حائرة.

صعدتُ المنبر.

تسللتُ عبر درجاته كما يتسلّل النادم إلى قلبه بعد ذنبٍ طويل.

وقفتُ طويلًا...

لا شيء فيّ يشبه الخطباء.

أنا ابن الحرب، ، لست ابن الكلمات.

لكنني تحدثت.

«أيها الناس، هذا المسجد عرف سيوفًا كثيرة قبلي.

عرف من صلّى فيه وقد علّق رأس خصمه عند الباب، ومن بكى هنا لأنّه لم يستطع ردّ مظلمةٍ عن رقاب قومه. جئتكم لا كما يجيء الملون، بل كما يعود الغريب إلى بيته، فلا يعرف إن كان أهل البيت ينتظرونه، أم دفنوا اسمه».

كان وجهي للحاضرين، لكن عينيّ ذهبت بعيدًا،

إلى أحد أعمدة الرخام المصلّبة عند يسار المحراب، حيث وقفت طفلة بعمر الخامسة، تمسك طرف عباءة أبيها، وتحدّق فيّ كأنها تعرفني من قبل.

توقّفتُ قليلًا.

التفتّ ناحية سنان باشا، لم يتحرك.

كان وجهه يطغى عليه حزنٌ نبيل، كأنّ الحجر يبكي دون أن ينهار.

«دمشق، لم تُقاتلني، لكنها لم تُبايعني أيضًا، وكان في صمتها سيف ... أمضى من الحديد.»

« أما أنا، فلا أطلب منكم حبًّا، ولا أهتف بنصر،

كل ما أطلبه منكم...

هو أن تدعوا لي كما يدعو الغريب في السفر:

أن يعود بقلبٍ لا تثقله البلاد التي مرّ بها.»

اختممت كلامي بالدعاء و الصلاة على النبي ثم نزلتُ، كل درجةٍ من درجات المنبر كانت تُنزِل في روحي شيئًا، كأنّني أُسلِم شيئًا مني لهذا المكان، بلا وعدٍ أن أستردّه.

يونس آغا انحنى حين مررت، لكن نظراته كانت مشغولةً بسقف الجامع، لا بعينيّ.

لا أدري، هل كان يهرب من شيء في وجهي... أم في وجهه هو؟

جلستُ في الصف الأول، والتكبيرات ارتفعت خلفي كأنّها تنهيدة بلدٍ بأكمله.

لم ألتفت للخلف، لكنني أحسست بجسديّات الناس، كيف اقتربت رؤوسهم من الأرض أكثر ممّا اقتربت من السماء.

كأنهم لا يسجدون لله فقط، بل يسجدون لدمشق التي لا تُهان، ولا تُحتَلّ إلا صامتة.

حين انتهت الصلاة، لم أقم فورًا.

جلستُ قليلًا، أتنفّس هواء المسجد الذي امتلأ بأنفاسٍ لا أعلم إن كانت مطمئنة... أم محاصَرة.

ثم قمتُ ببطء.

وقبل أن أغادر الباب الجنوبي، أدار أحد الصبية رأسه نحوي، كان في الرابعة ربما، رفع يده، لا ليسلّم...

بل كأنه يسألني:

«هل نتسابق بالخروج ؟»

ابتسمتُ له، لكني لم أجب.

خطوت خارج الجامع، وسنان باشا لا يزال خلفي بخطوة.

نظر إليّ وقال همسًا:

«مولاي، أهذا هو النصر؟»

لم أردّ.

كل ما فعلته، أن نظرتُ إلى السماء، ورأيتُ حمامةً بيضاء، تحطّ على المئذنة الغربية...

ثم تنفر بسرعة مغادرة بعد ثوانٍ، كأنها تذكّرت، أن هذا الوطن لم يعُد يعرف السلام.

مرّت شهور في الشام، لم أصدر أمرًا بالحملة.

الكل يتساءل:

هل اكتفيت؟، لكن لا أحد منهم يعرف أن السلطان... يخشى القاهرة.

لم أكن أخاف طومان باي.

ولا من تبقى من المماليك.

كنت أخشى القاهرة ذاتها.

مدينةٌ لم يجرؤ أحدٌ على غزوها منذ قرون، مآذنها شاهقة، وقلوب أهلها لا تنكسر بسهولة.

كنت أخشى الأزهر، أن ترتدّ عليّ صرخاتُ العدل من جدرانه، أن يعلو صوتُ الحق لا صوتي، وأن

يهبّ التراب في وجه الخلافة قبل أن تستقرّ على جبيني.

كلّ ما حولي من راياتٍ ونصر... لم يكن درعًا كافيًا.

كنت أغمض عيني في الليل، وتصعد من صدري تلك الأسئلة التي لا يُجيبها أحد:

«هل هذا طموح؟ أم جشع؟

هل أنا ظلّ الخلفاء، أم قاتلهم؟

هل أخوضُ المعارك باسم الله، أم باسمي؟»

وفي لحظة التردّد تلك، جاءني مكتوبٌ من إسطنبول.

سُرّب إليّ حوار دائر في أروقة قصر توبكابي.

كان ولدي، سليمان، يسأل أمه حفصة:

«أمّاه، هل سيكمل أبي المسير؟»

فأجابته:

«إن لم يفعل، ستكون وليّ عهد أقوى سلاطين بني عثمان، وإن فعل، ستكون وليّ عهد خليفة المسلمين».

كلماتها لم تكن جملة، كانت جسراً.

جمعت أشلاء عزيمتي المتناثرة بين مساجد دمشق،

وأعدت ترتيبها في صدري، كأنها ترتيلة تقرأها أم على ابنها المريض.

ثم بعدها ببضع ساعات جاءني المكتوب الثاني.

منهم، الجهاردية.

دعوني للقاء، لا في القلعة بل على سفوح جبل قاسيون حيث سكنوا بعد دخولنا دمشق سلمًا.

و في مكانٍ لا يشبه المعسكرات، بل يشبه المحراب.

صعدت إليهم وحدي، لا جُند، لا سيف، لا راية.

أسفل شجرة سدرٍ نحيلة، وتحت نجمٍ يسمّونه في كتبهم «الذوّابة».

و حسب ما يقولوا أنه نجمٌ يلمع شتاءً في كوكبة برج الأسد، ولا يراه إلا من نظر من حافة قدره

كان عُبّاد شاه بانتظاري.

وقف دون انحناء.

لكنّ صوته كان أقرب إلى خطبة جنائزية.

سألته، وكأنني أستعجل قَدَري:

«أأعود؟ أم أكمل؟»

فأجابني بهدوء:

«إن عدتَ، فقد ظفرتَ بالقدس، ثالث الحرمين.

وإن أكملتَ، تملك مكة والمدينة معًا.

وإن بدأت الآن، فستبلغ القاهرة مطلع عام ١٢١١م ،

أتدري حاصل جمع هذا التاريخ؟»

قلتُ بحذر و بصوتٍ يشبه حدّ السيف:

«أربعة عشر.»

فهزّ رأسه، وقال:

«وفي لغتنا، جهاردة، تعني القمر ليلة تمامه، ومنها اشتُقّ اسم جماعتنا، نحنُ من يُمهّدون التمام، ونُشير إلى الغروب القادم».

تأمّلتُ وجهه فكان جاف المعاني ورأيت الغروب بين عينيه.

تنهد بحسم ثم قال:

« يا ووز، استعد لأواخر عهدك، ولآخر معارك مع المصير.

بعدها سيكون هناك ثلاثة: المرض، والانهيار، والذبول.

ستذبل أنت بشخصك لكن تاجك سيكبر و ستتسع خلافة نسلك إلى تصل ليد قائل قولة حق بزمن المفسدين،

يا سليم لقد قبلت مصيرك معنا، و كنت لنا المخلص، ومن دمك، قدّمتَ قرابين الولاء.»

لم أتكلم.

لم أرفض.

لكن شيئًا بداخلي تحرّك.

الريح على قاسيون؟

لم تكن تهبّ، بل كانت تنشج.

كأن الجبل نفسه عرف، أننا وقّعنا العهد الأخير.

في تلك اللحظة، لم أكن أعلم أنني صرت، أداةً في يد الزمن.

فالقمر، حين يبلغ تمامه، لا يملك إلا أن يبدأ في التناقص.

عدتُ من قاسيون، لا كمن اختار الحرب، بل كمن سلّم نفسه لها.

لم يكن القرار مجرد خطة عسكرية،

بل أشبه باعتراف مكتوب بالحبر الأسود في كتاب القدر.

منذ تلك الليلة، صار وجه القاهرة يطلّ عليّ في المنام، وصوت ثُريّا، في يقظتي.

وفي الليلة التي تلت اللقاء، لم أنم.

وقفتُ عند شرفة صغيرة تُطلّ على حيّ من دمشق، حيّ لا يخصني، لكنّي شعرتُ أنه يعرفني أكثر من نفسي.

كانت السماء ساكنة، والقمر مكتملًا،لا ينقص، بل يُضيء وكأنه يذكّرني بليلة قاسيون.

لكنّه، هذه المرة، بدا أبرد...

كأنّه يحدّق فيّ دون رأفة.

مددتُ يدي نحو الستارة، أمسكتُ طرفها، ثم تركته، فاهتزّ القماش كصدرٍ شهق شوقًا.

دخل نسيم خفيف، لم يحمل معه برداً ولا عطر السوق، بل شيئًا واحدًا فقط... رائحتها.

همستُ، لا بفمي، بل بما بين ضلوعي:

«ثُريّا، هل تسمعينني الآن؟ هل يبلُغك صدى خطاي، بعد أن علّت فوقه خطى الموتى؟»

شعرتُ بوجعٍ مفاجئ في ضلعي الأيسر، المكان الذي كانت تسند رأسها عليه حين نتحدّث طويلًا قبل النوم.

وضعتُ يدي هناك، وضغطت، كأنّي أحاول تهدئة قلبٍ لم يعد لي.

«هل سامحتِني؟، هل غفرتِ أنني تركتُ كل شيء كان يُشبهك وسِرتُ وراء ما يُشبه أبي؟»

كان الهواء يمرّ حولي لا كريح، بل كهمس، كأنّه يحمل طرف وشاحها.

كأنّ روحها تتجوّل بين أوراق الشجر الخفيف على جدران الحيّ.

شعرتُ بوجنتيها تمرّان في دفء اللحظة، وبصوتها يصلّيني داخلي، دون أن أطلب صلاة.

قلتُ لها:

«إن فتحتُ القاهرة، فذلك لأنكِ لم تكوني هناك، لتقولي لي كفى.»

«وإن سقطتُ، فليكن سقوطي في مدينةٍ تشبه الغياب الذي خلّفته فيّ.»

وقفتُ هنيهة...

ثم اقتربت من زجاج النافذة، ومررت بخنصري على طرفها المكسوّ ببخار الليل، وكتبت:

«هي لم تتركني، لكنني صرتُ رجلًا لا يمكن البقاء معه.»

الصمت بعدها؟

لم يكن صمتًا.

كان بداية الحرب.

في الليلة الماضية، كتبتُ على زجاج النافذة أنني صرتُ رجلًا لا يمكن البقاء معه.

اليوم التالي، فعلت ما يفعله كل الرجال الذين لا يصلحون للحب، بل ينتمون للحرب.

و في اليوم التالي كان هو الذي حسمتُ فيه أمري، لم أُخبر أحدًا.

لا سنان باشا، لا يونس آغا، لا حتى قلبي.

جلستُ وحدي في خيمتي قرب أطراف دمشق، وأحضرت ورقةً ناعمة من ورقها، كأنني أردتُ للكلمات أن تجرح حين تُقرأ، لا حين تُكتَب.

ثم كتبت:

« بسم الله، من سليم بن بايزيد، سليل السلاطين حتى الجدّ العشرين، إلى معدوم الأصل والنسب، المملوكي الجركسي طومان باي. إن أردت أن تسلم من بطشنا، فسلّمنا عرش المماليك ومفاتيح القاهرة.»

طويت الرسالة ببطء.

وضعتُ عليها ختمي، لا بشرف، بل بحدّة.

ثم أعطيتها لرسولٍ لم أُسمّه، ولم أتمنّ له السلامة.

كنتُ أعرف أن السلامة لن تكون لأحد بعد اليوم.

مرت الأيام ببطء ثم وصلتني أخبار وصول الرسالة كما كنتُ أتوقّع.

طومان باي لم ينفجر، لم يسبّ، لم يلعن أجدادي.

بل قال بهدوء:

« ما من شيء أملكه لأُسلّمه، فكلّ ما تحت يدي، ملكٌ لشعبٍ لا يُقاتل من أجل سلطان، بل من أجل بيتٍ لا ينهار.»

في القاهرة...

عاد جان بردي وكرتباي من دابق منكسرين، بوجوه كالحَة، يجرّون ظلالهم لا خيولهم.

وفي ممرّات القلعة القديمة، اجتمع العلماء والمماليك الباقون، وتوافقوا على مبايعة طومان باي سلطانًا لمصر.

ابن أخ الغوري، ووليّ مصر بعد غيابه.

ابنه الوحيد مات، فلم يبقَ من النسب سواه.

لكن ما صدمني لم يكن في القاهرة، بل في الشام.

رأيتُ بأمّ عيني شبابًا يحملون رايات المماليك.

شبابًا من حلب، من غزة، من أطراف القدس،

يجمعون أنفسهم، ويخرجون من الشام قاصدين القاهرة...

لا لهجاء اسمي،

ولا كتمرّدٍ عليّ،

بل قالوا ببساطة وهم يعبرون أسواق المدينة:

«لسنا ضدّ سليم، لكن مصر هي وطننا الآن،

والمحتلّ مهما نُقّيَ درعه، يبقى غريبًا.»

لم أغضب.

لم أصدر أوامرًا.

لم أُعاقب أحدًا منهم.

نظرتُ إلى سيفي المعلّق، ثم قلت:

«حتى السيوف تبكي، إن طُعنت في صدرٍ لا يُبغضها.»

و عند أول فجرٍ في كانون، خرجنا.

الجيوش كلها كانت تتحرّك.

جهاردية... إنكشارية... فرسان الأناضول...

كلهم يسيرون لا كأنهم يتقدّمون لنصر، بل كأنهم يُشيّعون سلطانًا إلى دفنه الأخير على عرشٍ لم يعد له اسم.

وأنا؟

كنت في المقدمة، على ظهر جوادٍ لم أُسمّه، كأنني لا أريد أن أُشرك أحدًا في هذا المصير.

ورفعتُ رأسي إلى السماء، كان فوق جبل قاسيون نجمٌ واحد لامع، متوحّد، لا يشبه باقي النجوم.

قال الجهاردية إن اسمه:

«نجم الولاء.»

عرفتُ حينها... أنني لا أسير وحدي.

بل بصُحبة نذري، وخطاياي، وظلّي الطويل الذي لا يزول.

ورفعت رأسي إلى السماء مجددا، رأيت نجم الولاء، يُحدّق فينا جميعًا دون أن يطرف.

وفي لحظة سكونٍ قبل المسير...

عاد إليّ مشهدٌ لم يُغادرني، كأنه لم يكن ليلةً من قبل، بل كان يوم مولدي الجديد.

في تلك الليلة، لم أنم.

ليلة انطلاق الحملة، لم أنم في خيمتي.

جاءني عُبّاد شاه، صامتًا، لكن في عينيه شرارة غريبة.

قال:

« قبل أن تُفتح القاهرة، يجب أن يُفتح باب الدم،

كل عهدٍ جديد، يحتاج إلى قربان.»

لم أسأله «لماذا؟»

فقد كنت أعرف أن القاهرة لن تُمنَح لي بلا مقابل.

اقتادوني إلى مكان لا أعرفه عند سفح جبلٍ بعيد عن دمشق، حيث لا مئذنة تُسمَع، ولا جند يُراقب.

كانت هناك شجرة بريّة، جافّة، لم يُسمّوها لكنهم قالوا إنها نبتت فوق قبر محاربٍ مجهول، قُتل في غزوةٍ لا يذكرها التاريخ... لكن الأرض لم تنسها.

كانوا خمسين رجلاً...

من الجهاردية، كلّهم بلباسهم الأسود، لثامهم وجباههم مكشوفة للريح.

وقفوا في دائرةٍ ضيّقة، وفي مركزها، كبشٌ رماديّ اللون، ضخم، كأنّ الضباب نسج صوفه، لا الطبيعة.

عندما خطوتُ داخل الدائرة، صمت الجميع.

لم تهمس ريح، لم يتحرك فرع.

اقترب مني أحدهم، ومدّ إليّ خنجرًا قصيرًا، ليس سيف، بل سلاحُ طقسيّ، نحيل، مشحوذ كنيّةٍ لا يُعلنها أحد.

قال لي:

«إن ذبحتَه بيدك، ستدخل القاهرة وحدك، لا مع الجيش.»

لم أفهم ما يقصده.

فنظر إليّ عُبّاد شاه وقال:

«لأنك بعد الذبح، لن تكون سليم بن بايزيد،

بل ياووز بن القَدَر.»

اقتربت بخطوات ثابتة و حذرة.

وضعتُ يدي على قرن الكبش.

لم يرتجف.

عيناه كانتا ساكنتين، وشيئًا في داخلي بدأ يرتعش.

نظرت فيهما، فرأيت نفسي حين كنتُ طفلًا، قبل أن يَحلّ ظلّ أبي على ملامحي.

ثم... ذبحتُه.

لم يصرخ.

لم يسقط على الفور،

كأن يدًا خفيّة أمسكت به من الخلف، وأبقت جسده واقفًا لحظة، بينما الدم يسيل من عنقه إلى التراب.

رأيت شعاعاً أحمر يخرج من بين صوفه و يسير، لا في اتجاه الريح، بل في اتجاه الجنوب.

نحو القاهرة....

ثم رفع رجال الجهاردية أيديهم اليمنى إلى صدورهم، وقالوا بصوتٍ واحد، كأنهم يُرتّلون نذورًا بصوتٍ أشبه بصهيل الخيول:

« من الدم خرج، وإلى الدم يعود،

ومنه يكون النصر.»

عندها، أحسست بشيءٍ غريب.

كأن ظهري خفيف، كأن ظلّي لم يعد خلفي، بل صار أمامي.

كأنني لم أعد أسير نحو العرش، بل العرش هو من اختارني لأسير إليه.

وفي صباح اليوم التالي، ركبتُ جوادي.

لكنني لم أحمل فقط الرايات والسيوف، بل حملتُ الطقس، والدم، والنذر.

وحين نظرتُ إلى السماء مجددًا، رأيت النجم ذاته... يُشبه عينًا تُراقب، لا تبارك.

وكانت القاهرة... تنتظر.

لكني كنتُ حينها أستعيد صوت ثُرَيّا من أعماق داخلي ، كما يعود الموج إلى الشاطئ كلما جرفته الرياح:

«سليم، عليك أن تُروِّض غضبك، لا أن تتركه يلتهمك، القوة والسلطة سيفان في غمدٍ واحد، لكنهما بلا حكمة... مجرّد لعنة .»

في تلك الليلة، قبل أن تتجه الخيول نحو القاهرة، لم أكن أحمل في يدي سيفاً فقط، بل كنت أحمل ثِقل النبوءات، وخيانات الأمس، ووجه سنان الذي كان يراقبني بصمتٍ كأنه يقرأ ما في روحي.

لكن النصر لا يُنتَزع بالسيوف وحدها... النصر يبدأ حين يهتز قلب العدو قبل أن تبلل دماؤه الأرض.

أطلقتُ ظلالي قبل أن أطلق جيوشي؛ تركت الأخبار تتسلّل عبر أفواه تجار الشام العائدين إلى مصر.

أن قادتي يتنازعون، وأن شيوخ الشام يسدّون الطريق في وجهي، وأن جيشي نصفه على شفا العصيان...

وفي ذات الوقت، وصلت رسائلي إلى أمراء طومان باي، محمّلة بوعود ودٍ وتحالف، كنتُ أعلم أنها لن تُقرأ إلا على مائدته، وأنه سيشمّ فيها رائحة الخيانة من خاصته، حتى يبيت وهو يفتّش في وجوههم عن طعنة تالية.

وفي القاهرة، كان طومان باي يقف على منابر المساجد، يخاطب العوام كإمامٍ في صلاة خوف؛ وجهه متعب، وعيناه تبحثان في جموعهم عن جيشٍ لم يأتِ، بينما الأمراء من حوله يحسبون الأرباح قبل الدماء، ويشترطون الضرائب قبل أن يمدّوا أيديهم للسيوف.

كنت أعلم أن هذه البلاد ستقاتلنا بنصف قلب، وأن النصف الآخر قد أضعفته الجبايات والجوع.

و لمّا تركنا دمشق خلفنا، كان الرمل يبتلع وقع حوافر الخيل، وكأن الصحراء تُخفي خطواتنا عن أعين القدر.

أرسلنا رسلًا إلى شيخ قبيلة البدو، نعرض عليه العهد.

بعد فتح مصر، سأحرر شيخهم الأسير في « سجن المقشرة».

حيث سجنه الغوري، ولن تطأ أقدام العثمانيين أرضهم إلا صديقًا.

حين جاء الرد، كان الليل قد بلل أطراف الصحراء بندى بارد.

دخل عليّ مبعوثهم، وجهه مجعّد كأرضٍ عطشى، لكنه يحمل في عينيه ضوء من يعرف قيمة الكلمة.

قال:

«يا سلطان، نحن قومٌ لا نحني الرأس إلا لعهدٍ يُصان، وإن كان وعدك صادقًا، فدماؤنا دماؤك، وصحراؤنا ظلك.»

ابتسمتُ، وربطتُ على زند يده، وأجبته:

«ما خرجتُ إلا لأفتح بابًا لنا جميعًا، ومفتاحه أمانة في عنقي.»

لكن الصحراء، يا ثُريّا، ليست أرضًا تُهادن أحدًا، مع كل خطوة، كانت المؤونة تتناقص، والظمأ يعضّ الحناجر.

وفي ذات مساء، حين بدأ الأفق يذوب في لون النحاس المحترق، أقبل يونس آغا عليّ، وجهه عابس، وصوته حاد كحد السيف:

«مولاي، لا يمكننا الاستمرار هكذا. المؤن على وشك النفاد، والرِّجال بحاجة إلى استراحة حتى يأتي الدعم من الأستانة.»

أجبته وأنا أنفض الرمل عن كفيّ:

« الدعم؟، الدعم هو ما نحمله في قلوبنا، لا ما ننتظره من أحد، إن توقفنا الآن، سنمنح طومان باي وقتًا ليجمع نفسه.»

اقترب خطوة، وكأنّه يريد أن يُقنعني بالعقل:

« لكن يا مولاي التعب ينهش الجنود، وإن سقطوا قبل أن نبلغ القاهرة، فما النصر الذي سنكتب اسمه؟»

نظرت إليه طويلًا، ثم قلت بحسم:

«نصر يُكتب بالدم، يونس آغا، لا بالانتظار.»

لم يُجب، لكني رأيت في عينيه ظلاً من القلق... أو ربما من النبوءة لم يقلها.

تحت سماء بلا نجوم، نصبنا الخيام تلك الليلة، الريح كانت تحمل رائحة الغبار والعرق والحديد.

كنت أستعد للنوم حين شعرت بوخزٍ في كتفي، ثم بحرارة في صدري، كأن حشرة سُمّها يحرق الدم.

لمّا كشفت عن جلدي، رأيت بثورًا صغيرة مائلة للسواد، تحيطها هالة حمراء، وبعضها ينزف نقطة داكنة.

لم أقل شيئًا...

في الحرب، لا يليق بالسلطان أن يمرض أمام رجاله.

قلت لنفسي:

«إنه الطاعون، كما يجيء في ساحات القتال لمن سبقني من أجدادي و لكنه سيمر.»

أسدلت العباءة على ظهري، لكن الألم لم يمر...

بل تمدد، حتى شعرت أن النار تسري في عروقي.

مع كل فجر، كنت أستيقظ أقلّ مما كنت، وكأن جسدي يسلّم أجزاؤه واحدًا تلو الآخر لمرضٍ يتقدّم في صمت.

الحبوب السوداء على ظهري بدأت تتشقق وتدمع دمًا خفيفًا، والحمى تكسو رأسي بضباب حارّ.

كنت أرفض أن يقترب مني الطبيب، وأدّعي أمام الجنود أنني بخير... حتى أمام سنان، الذي كان يعرفني كما يعرف صوته.

لكن في ليلة بعينها، حين كنّا على مسيرة ليلة واحدة من أبواب القاهرة، تسلّل إلى نومي حلمٌ غريب، ثقيل، كأنه خرج من قلب السماء.

رأيت نفسي في ساحة معركة لم أعرفها، الأرض فيها مكسوّة بماء أسود، تفوح منه رائحة الحديد والدم.

على البعد، كان يقف طومان باي، عيناه ليستا عليهما حياة، لكنهما تُثبّتاني كقوسين من الجليد.

وراءه، رأيت طفولتي... قصر أبي و عرشه، صرخاته، وجه أمي وهي تنطفئ بين يديّ، نفيي من القصر، وغياب ثُريّا.

فوق الساحة، طارت غربانٌ سوداء، كانت منقارها يقطر دمًا، وكلما اقتربت مني، سقط واحد منها ميتًا عند قدميّ.

ثم سمعت صوتًا أعرفه ولا أنساه، كان صوت عُبّاد شاه:

«ستربح الحرب... لكنك ستخسر نفسك.»

و بنبرة أكثر حدة هتف:

« ياووز، لا مفر لك من بين الدم و القدر.»

استيقظت فجأة، العرق يغرقني، وقلبي يدق كطبول الحرب.

خرجت من الخيمة أبحث عن هواء، لكن السماء بدت وكأنها سقطت عليّ دفعة واحدة.

لم أشعر إلا وأنا أرتجف على الأرض، جسدي يتلوّى، وعينيّ تتقلبان بين الظلام والضوء، حتى جاء سنان يركض، ورفعني بين ذراعيه وهو يصيح في من حوله.

قضيت ليلتين بين الغيبوبة والكوابيس، أرى المشاهد ذاتها تتكرر وتتكسر، وكلما فتحت عيني،

وجدت سنان إلى جانبي، يضع يده على كتفي، وصوته يحاول أن يثبتني للحياة.

حين أفقت، أخبرني أنني لا أملك القوة لقيادة المعركة، وأنه سيقود الحملة بدلاً عني.

كلماته كانت كطعنة، أردت أن أصرخ في وجهه... لكنني تذكرت ما قاله عُبّاد شاه على الجبل:

« ستدخل القاهرة وحدك، دون جيشك.»

حينها، عرفت أن الدوران في حلقات القدر قد بلغ نهايته... وأومأت بالموافقة على مضض.

ومع مطلع الفجر، حين ارتفعت تكبيرات الجنود، وشهقت الخيول قبل الانطلاق، جلستُ في خيمتي لحظة أسمع الأرض ترتج تحت وقع أقدامهم.

لم أعد قادراً على التمييز بين خوفي وغضبي... كلاهما كانا يطالبان بحقي في الدم.

مر ثلاث ساعات أو قرابة خمس لم أعد أحتمل ثِقَل الخيمة ولا الهواء المسموم بانتظارٍ طويل.

كأن الأرض خارجها تناديني... كأن أصوات الحرب تنقر على ضلوعي من الداخل.

أمسكت بلجام فرسي، جلست فوقه، وتركت يدي تمسح على عنقه... كان يتنفس بعمقٍ، والدفء يتصاعد من جلده كأن قلبه هو الآخر يعرف أن المعركة قد بدأت.

حين اخترقتُ الصفوف الأولى من جنودي، استقبلني وجه السماء رماديةً مشقوقة بالدخان، ورائحة البارود تتسلّل إلى صدري مع كل نفس، تلسع الحلق، وتترك طعم الحديد على لساني.

كانت أصوات الطبول تختلط بصهيل الخيل وصراخ الجرحى... خليطٌ يجعل قلبك يخفق أسرع مما تقدر عليه رئتاك.

في البداية، كانت كفة الممالك راجحة.

رأيت راياتهم تتمايل مثل أمواج بحر هائج، وعيونهم تلمع ببريق الصياد الذي شَمّ رائحة فريسته.

لكن على التلة حيث المدفعية مع جان بردي و جيشه ، حدث ما غيّر كل شيء...

فجأة راية الممالين هبطت ببطء، كأنها شجرة تُقطع جذورها، وراية العثمانية ارتفعت، ترفرف بحدة، تليها قعقعة المدافع الأولى.

تلك اللحظة كانت كطعن العصب العيّ... صفوفهم اضطربت، وانكسرت صيحاتهم.

وسط العاصفة، سمعت صرخة كربتاي تخرج من صدره كالسهم:

«خونة! جان بردي خائن! »

لم أكن أعي سوى أنني أريد أن أرى بعيني، أن أكون حيث الموت يدور كدوامة في قلب الميدان.

انطلقت، والسهام تمر بجانبي، بعضها يخدش الهواء قرب وجهي، وبعضها يرتطم بالدروع أمامي، يصدر عنها طنين معدني يعلق في الأذن.

وفجأة، رأيت سنان...
كان يلوّح بيده نحوي بعنف، وجهه مشدود، عينيه تتسعان كمن رآني أسير نحو حافة هاوية:
« مولاي! ماذا تفعل هنا؟! »
لم أجب... لم أستطع.
كنت أسمع فقط دقات قلبي وهي تتغلب على كل الأصوات الأخرى.
اقترب مني، ورأيت العرق يلمع على جبينه وسط الغبار.
رفع سيفه ليصد ضربة جاءتني من اليسار، وشرارة انطلقت من اصطدام الحديد بالحديد.
ثم... حدث ما لم أتوقعه.
قفز من على صهوة حصانه، وانقض نحوي، ذراعيه تحيطان بي بقوة، وصوته يخرج من صدره كآخر نفس:
« مولاي... انتبه! »

شعرت بجسده يصطدم بجسدي، وبثقلٍ يجرّنا إلى الأرض.

الغبار ارتفع حولنا كسحابة خانقة، ورائحة الدم الحار اندفعت إلى أنفي قبل أن أرى من أين جاءت.

حين انقشع الغبار عن وجهي، كان سنان على صدري، عيناه نصف مغمضتين، وفمه يحاول أن يشكّل كلمة لم يكتمل حروفها.

وضعت يدي على ظهره، شعرت بحرارة الدم تتسرب ببطء، حتى بلّلت أصابعي.

حاولت أن أرفع رأسه، لكنه كان قد سلّم نفسه للصمت... الصمت الذي لا يقطعه شيء.

صرخة أخرى مزّقت اللحظة، كانت لكرتباي:

«طومان! القتيل ليس بسليم، إنه وزيره سنان !»

كانت كلماته لم تصل لعقلي كما هي... بل شعرت بها وكأنها إهانة جديدة، خيانة أخرى، طعنة لا تصيب الجسد بل القلب.

قبل أن أتمكن من النهوض، جاء صهيل خيل قوي من العمق، وصوت أنثوي يخترق الضوضاء حولنا:

«أسرعوا، وأحموا السلطان طومان.. »

التفت، ورأيتها، هي التي سبق كلفت بقتله، درّة، شعرها يتطاير كألسنة لهب سوداء، على ظهر حصان أسود وسيفها يلمع، تحيط بها فرقة من فرسان دربتهم بنفسها على مهارات قومها من الجهاردية.

كانت تلك اللحظة التي انتزعوني فيها من حقي بالثأر... لحظة ابتعد فيها طومان باي ومعه من تبقى من خاصته.

وقفت وسط الميدان، والناس من حولي يقاتلون أو يسقطون، لكن عينيّ لم تفارقا جسد سنان المسجى بأرض المعركة.

أغمضت عيناه برفق و بقيت محتضنه إلى أن وصلنا خيولنا المخيم.

كانت الأرض تشرب دماءه ببطء، كأنها تحفظه في جوفها... وأنا أحاول أن أصدّق أن الحرب قد ربحتنا، لكن الخسارة ربحت قلبي.

« نعم لقد ربحنا الحرب و لكن خسرنا سنان »

بعد أن انطفأت أصوات السيوف، وبرد الحديد في الأيدي، بقي الدخان يعلو فوق الميدان مثل كفن رمادي.

لم يهنأ النصر للحظة... كان قلب المعسكر ينوح على سنان، حتى الجنود الذين لم يعرفوه عن قرب، صاروا يتهامسون باسمه كأنهم يخافون أن يوقظوا روحه.

وقفت على حافة الميدان، أنظر إلى الطريق الممتد جنوبًا...

هناك كانت القاهرة، بعيدة لكنها لم تعد تلمع في عينيّ كما يلمع السراب في عيون العطشى.

تذكرت حينها كلمات عُبّاد شاه:

«ستدخل القاهرة وحدك، دون جيشك.»

أدركت ما كان يقصده، أي سأدخلها دون سنان و أثناء حداد جيشي على الصدر الأعظم و قائدهم سنان باشا..

في صباح اليوم التالي، ارتديت رداءً بسيطًا، بلا ذهب ولا حرير، فقط قماش داكن يقي البرد.

لم يكن معي سوى خاير بك عن يميني، و جان بردي الغزالي عن يساري، يركبان على فرسيهما بصمت.

أما خلفي... فلا شيء سوى فراغ الطريق، وغبار الحرب الذي تركناه وراءنا.

حين اقتربنا من أسوار القاهرة، كان المشهد أشبه بجرح مفتوح.

الأبواب نصف مكسورة، والبيوت القريبة مسوّدة بالدخان، ورائحة الحطب المختلط باللحم المشوي تتسرب من الأزقة.

رأيت النساء يقفن عند العتبات، يحملن أطفالهن على خاصرتهن، وعيونهن لا تجرؤ على النظر إلينا.

الرجال إما يلوذون بالظل، أو يراقبون من خلف نوافذ مكسورة، كأنهم يخشون أن يراهم النصر فيعاقبهم.

خطوات خيولنا كانت هي الصوت الوحيد الذي يخترق السكون.

كنت أشعر أن المدينة كلها تمسك أنفاسها، تنتظر لحظة تعرف فيها: «هل جاءهم قاتل أم مخلّص؟»

لم تمر أيام كثر حتى عاد طومان باي يظهر، لا كسلطان على عرش، بل كظلّ يقاتل في الشوارع، رأيته يقود بضع عشرة من رجاله، ومعه درّة، شعرها مبلل بالعرق، وسيفها كأنه امتداد لذراعها و قوتهما.

كانوا يهاجمون فرقة من الانكشارية، ثم يختفون بين الأزقة قبل أن نغلق عليهم الدائرة، تكرر الأمر خمس مرات.

وفي المرة الأخيرة أرسلت مناديًا ينادي في شوارع القاهرة:

«يا طومان، إن لم تسلّم نفسك،

سأحرق القاهرة على من فيها! »

وصلني رده سريعًا، كأنه كان ينتظر التهديد:

« لن أستسلم إلا بعد قتالٍ نزيه! »

حين قرأت الرسالة، شعرت باحترام لم أتوقعه...رغم أن يديه لا تزال تحمل دم سنان.

لكنني رأيت فيه خصمًا لا يرضخ، لا يبيع آخر معركة في روحه.

لذا حسمت أمري و نزعت درعي، وأمسكت سيفي، وسرت إلى ساحة باب زويلة.

الأهالي التفتت كحلقة من الحجارة، يراقبوننا بصمتٍ فيه رهبة وفيه شغف و الإنكشارية تحيط بالمكان.

كان كل واحد منهم يعرف أن هذه اللحظة ستُذكر طويلًا بعد أن نصير ترابًا.

كنت أتوقع وصوله بموكب ضخم أو بتأمين كبير من درة و من معه، لكن ما حدث أني فجأة رأيت طومان باي يخرج من بين صفوف العوام.

وقف في قلب الساحة، سيفه في يده اليمنى، وعيناه ثابتتان عليّ كأنهما لا تعرفان غيري في هذا العالم.

كان الغروب يرسم خطًا من الدم على حواف السماء، وطيور داكنة تحوم كأنها تنتظر الوليمة الأخيرة.

الجمع كان يلتف حولنا في صمت غريب... حتى صرير الريح بين أخشاب البوابة كان مسموعًا.

تقدمت نحوه بخطوات ثابتة، كل خطوة تُسمع ارتطامها على الحجارة، والهواء بيننا كثيف، كأنه يعترض الطريق.

لم يكن هناك كلام، فقط النظرات...

نظرات رجلين يعرفان أن أحدهما لن يغادر هذه الساحة حيًا.

بدأنا بالدوران حول بعضنا، ندرس المسافة، نراقب حركة الكتف، ارتعاشة المعصم، وحتى أنفاس الآخر.

ثم جاءت الضربة الأولى...

صوت الحديد على الحديد دوّى كبرق يخترق الليل، ورذاذ الشرر تطاير أمام عيني، ضربة تلتها أخرى، ثم أخرى...

كل منا كان يختبر صبر الآخر، يدفعه ليفتح ثغرة في دفاعه.

تمتم طومان باي بصوت منخفض، كأنه يتحدث إلى نفسه:

« إن انتهيتُ اليوم... فلتشهد السماء

أنني لم أركع لابن عثمان.»

لم أُجبه، لكن يدي شدّت على السيف أكثر، وعيني لم تفلت عينيه لحظة واحدة.

ثم انحرف بسيفه فجأة، ووجّه ضربة نحو كتفي، صدّيتها، لكن قوة الاصطدام جعلت ساعدي يرتجف.

استدرت حوله بسرعة، ضربت نحو جانبه، فرفع ذراعه ليصدها، وفي لحظة التقاء السيوف، شعرت

بالفرصة...دفعت بكل قوتي، وركبتي تلتف خلف ساقه، فسقط على ركبتيه، وسيفه يبتعد عن يده ببطء.

توقف الزمن.

كنت أسمع أنفاسي، وأنفاسه، وصوت قلبينا يضرب كطبول الحرب.

رفعت سيفي فوق عنقه، ونظرت في عينيه... لم أرَ فيها خوفًا، بل شيئًا يشبه السلام.

همس طومان من بين صرير أسنانه و بصوت هادئ وواضح:

« اقتلني أن أردت، أني راحل و مصر باقية و حتى إن طال بك الزمان، أنت ونسلك راحلون عنها لا محالة »

قيدته بالحبال و سلاسل إلى أن وصل لمنصة اعدامه عند باب زويلة و ناس من حوله تبكي و تنتحب على

مقتل آخر سلاطين دولة المماليك بقبضة خليفتهم الجديد من بني عثمان.

و ما أن وصل صعد بهدوء درج المنصة ثم قرأ الفاتحة ثلاث مرات بصوت عالٍ، حتى آخر لحظة، والناس من حوله واجمون، بعضهم يرفع رأسه كأنه يحاول حفظ المشهد في قلبه.

ثم نظر للجلاد الذي كان ينتظر إشارتي، وقال له بوجه بشوش:

« أكمل عملك.»

أعطيت أمر بشنقه ثم علق على بوابة زويلة، كما وعدت... ليكون عبرة لمن بعده.

و لكن ما حدث حين أُسقط الحبل من تحت قدميه كان علامة حب و تقدير لم افهمه، نزع الانكشارية خوذاتهم احترامًا، وهي إيماءة نادرًا ما يمنحونها لغير سلطانهم.

بعد ما انفض الجمع و تفرق الجميع وقفت أمام جثمانه المعلق، أحاول أن أقنع نفسي أن هذا انتصار.

جسد طومان باي المرفوع، والحبل لا يزال يتأرجح برفق كأن الريح تتردد في لمسه.

لكن في صدري، كان الصوت الأوضح هو صوت سنان...

« مولاي... انتبه.»

لم يكن في قلبي انتصار... بل سكون ثقيل يشبه الحداد.

تسللت إليّ كلمات سنان، كما لو كان يهمسها من مكان بعيد.

مرت أيام ثم بلغني بعدها أن درّة، عشيقته، فرّت إلى صحراء سيوة، تحمل في رحمها طفلاً منه.

لم يهمّني الخبر، فأنا لا أقاتل النساء، ولا ألهث وراء أشباح هاربة.

أما من بقي من أمراء المماليك، فانقسموا بين من انحنى وبايعني، ومن أبى أن ينكسر بعد سقوط سلطانه.

هؤلاء الأخرون... لم أتركهم لليالي تبتلعهم؛ أمرت بقتلهم، وعلّقت جثثهم إلى جوار سيدهم، ليتذكر كل عابر أن زمن المماليك قد انتهى.

وضعت على مصر خاير بك والياً باسمي، وأطفأت جذوة جان بردي الغزالي كما يطفأ جمرٌ في راحة اليد.

لكن، رغم كل ذلك، لم يهدأ صدري، ولم تُطفأ النيران التي أوقدتها الحرب داخلي.

كانت القاهرة صامتة، لكن في أعماقي... كان الصخب لا يزال مستعرًا.

من مُذكَراتِ سَلِيمِ الأَخِيرَةِ

« في حلب، شعرتُ أنني لستُ فاتحًا، بل جنديٌ يعود إلى بيتٍ لم يجده و دمشق أهدتني الهتاف... لكن بين الصدى والروح، ضاع اسمي.»

« حين ارتفع الأذان في المسجد الأموي، أدركت أن الدعاء قد لا يصل لمن تلطّخت يداه.»

« دم الكبش كان دافئًا... كأن الأرض شربته لتعطيني مهلة أخرى من الحياة، و كأنها كانت الأخيرة. »

« أخفيت الأمر عن الجميع ، شعرت أن الرمال في سيناء لم تكن صحراء.. كانت زمنًا يبتلع خطواتي. »

« المرض تسلّل إلى صدري مثل عهدٍ قديم... لا يُكسر إلا بالموت.»

« في المنام، النجم لم يسقط... بل اقترب ليمسّ جبيني، ويذكرني أنني مجرد بشر لا اله.»

«على رمال الريدانية، مات سنان... ودفنتُ معه آخر ما تبقّى من يقيني.»

« القاهرة لم تكن مدينة... كانت جرحًا مفتوحًا ينتظر سيفًا ليُغلقه.»

« في عيني طومان باي، رأيتُ وطناً يحترق... وفي عيني نفسي، رأيتُ الرماد. »

« طومان، حين سقط رأسه، شعرت أن التاريخ كتب سطوره بمدادٍ من دمائنا نحن الاثنين.»

« الآن، بعد أن فرغ الميدان... لم يبقَ إلا أنا وصوت الريح، وكلمة أخيرة لم أجد من أكتبها له. »

الفصل العاشر

النبوءة الأخيرة

«كنتُ ياووز... ثم كنتُ سليم... ثم لم أكن شيئًا،

وبين تلك الظلال سال عمرٌ من الدم والظمأ.

كنت السلطان الذي لم يحبّه أحد كما يستحق،

ولا أظنه أحبّ كما استحقّوا.

والآن، لا أطلب حبًا... بل رحمة.

هكذا أنتهي، كما بدأت...

وحيدًا،

في صمتٍ يشبه أول بكاء.»

كان الهواء في الغرفة ثقيلاً كقبرٍ أُغلق مبكرًا، رائحة الخلّ تتصاعد من الأواني النحاسية المعلقة قرب السرير، تمتزج بأبخرة الشيح والكافور، ورذاذ ماء الورد الذي حاول الأطباء أن يجعلوه ستارًا ضد العفن الذي ينهش جلدي ولا تحتمله أنفي.

المبخرة لا تهدأ، وقطرات الزرنيخ المخلوطة بالعسل تُسقى لي كل صباح، مع مسحوق الأفيون لتسكين الألم الذي لا يُحتمل، لكن الألم لم يعد في الجسد... بل في الكلمات التي لم تُكتب بعد.

أمام عيني، الدفتر مفتوح، والريشة بين أصابعي كجندي فقد سيفه.

كتبت بخطٍّ مُرتعش:

« بعد أن أغلقت أبواب الشرق خلفي، وعدتُ إلى إسطنبول، كنت أظن أن الطريق سيفتح لي البحر، أردتُ أن أضع قدمي على جزيرة رودُس، أول حجرٍ في جدار الغرب... أردتُ أن أُكمل العلم.

لكنني لم أكن أعلم أن الخرائط لا تُرسم بالحبر فقط... بل بالدم الذي في عروقي، وهو اليوم أصبح يَغلي بالسمّ.»

ارتفعت نوبة السعال فجأة، حتى شعرت أن حنجرتي تشتعل، وسقطت قطرة دم على الصفحة على مقربة من الريشة، كأنها توقيع النهاية قبل أوانها.

أغمضت عيني للحظة... فعاد إليّ ذكرى ذلك الليل البعيد، في غابة بلغراد.

كان الضباب يزحف بين الأشجار، يلتفّ كأفعى حول جذوع السنديان. خطوات الجنود كانت تتلاشى شيئًا فشيئًا خلفي حتى لم يبقَ في الساحة إلا أنا وظلّ أسود ينتظرني.

عُبّاد شاه.

كان يجلس على صخرة، برداؤه الداكن يبتلع ما حوله، وعيناه تلمعان في العتمة كسيفين مشحوذين وأمامه نيران تلتهم الحطب. وحين تقدّمت، نهض ببطء، كمن يخرج من جوف الليل.

تقدّمت، وسيفي يثقل قبضتي. قلتُ بصرامة:

«تجاهلتَ مكتوبي... والآن تستدعيني؟ حسنًا، لتعلم إذن، انتهت معارك الشرق، وبقي الغرب و أريد رجالكم كما كانوا معي، روُدّس... ثم روما، لن نتوقف الآن.»

ابتسم بسخرية باردة، ثم مشى نحوي حتى صار بيننا نفس واحد و قال:

«الغرب؟ ليس لنا فيه نصيب ولا عقيدة، يا سليم، نحن أعطينا الشرق لأن الشرق قلب الأديان، مركز النبوءة.

هنا كانت غايتنا، القاهرة كانت آخر معاركنا، أما ما بعد ذلك، فليس لنا وليس ضمن عقيدتنا.

نحن الجهاردية، ومهمتنا انتهت عند دخول أبواب القاهرة، واتفاقنا انتهى حينها.»

قبضت على مقبض سيفي، حتى تحفّزت عضلاتي من الغضب:

«أنتم تتنكرون للعهد؟ أنتم أدرى من غيركم أني لولاكم ما فتحت الشام ولا كسرت الممالين، الآن... الآن تخذلونني؟»

رفع رأسه، كمن يشفق لا كمن يعتذر:

«نحن لم نعدك بالغرب يا سليم، وعدناك أن نفتح لك أبواب الشرق، وها قد فعلنا.

لكنك لا تعرف الأمر بعد، يا سلطان الشرق وطفل ثُرَيّا ... ما كنتَ إلا أداة في يد القدر، لستَ المختار الذي ظننت نفسك إياه، إنما كنت جسرًا يمشي عليه المختار حين يُبعث في زمانه ونكون نحن الجهاردية دعاة لحكمته.»

صرخت، فاهتزت الأشجار لرجّة صوتي:

«أنا ظلّ الله في الأرض! أنا السلطان ياووز الذي وحّد الأمة تحت راية القرآن...»

ضحك، ضحكة قصيرة لكنها اخترقت أذني كسيف:

«ظلّ الله؟ أم ظلّ الخوف؟ ما أنت إلا ذاك الطفل الذي يبحث عن حضن أبيه أو حضن تلك الشامية التي علمتك الحلم يوم كنت عاريًا من كل شيء إلا الخوف.

و لتعلم، أنك آمنت يومًا، فانتصرنا، ثم كفرت حين توهّمت أن القوة خلاصك لا من الله، نحن لا نحارب لنُشيّد لك قصورًا، بل نحارب لنملك ما وراء القصور.

كنت تظن نفسك المخلّص؟ لا، يا سليم... كنت جسرًا مشينا عليه.»

تقدمت نحوه بخطوة، ووضعت نصل سيفي على عنقه، فبقي ساكنًا كتمثال من حجر، ثم همس بابتسامة باردة:

«اقتُلني، إن استطعت ألا تُهزم قبل أن تلمسني.»

ترددت للحظة، ثم ضاقت عيناي:

«أهذا تهديد؟»

أجاب، ونبرته هذه المرة كانت كالمطرقة:

«ليست تهديدًا... بل حقيقة، دمك بات مسمومًا، إنها جمرة خبيثة تنام في عروقك منذ أن عبرتَ رمال سيناء، ظننتها حُمّى الطاعون؟ لا، يا سليم... إنها لعنتنا.

دسَسناها لك ونحن نُهيئ لك الطريق، ظننت نفسك المنتصر بحق؟ المنتصر لا يسعل دمًا كما فعلت قبل قليل وأنت آتٍ إلى هنا.

ظننت أن القدر يفتح لك الأبواب؟ القدر لا يفتح... القدر يلتهم.»

ارتجف قلبي للحظة، لكنني أخفيت ارتعاش يدي. قلت:

«تكذب... ما أنت إلا كاذب لعين.»

ابتسم، ثم اقترب أكثر حتى أحسست بحرارة أنفاسه على وجهي، وقال:

« بلى، ولكني أسامحك على إهانتك، فلا نملك للميت إلا الدعاء بالرحمة. لذلك سوف أعطيك الهدية الأخيرة، فيحقّ للميت أيضا أن يعرف مصيره.

يا سليم، ستموت وحيدًا، لأنهم سيخشونك حيًّا وميتًا.

سيتركونك كما يُترك السيف المكسور للصدأ، لن يقتربوا منك إلا ليشدّوا الكفن عليك.

شمسك على وشك الغروب، ومن بعدها، يولد سلطان من دمك، لا يشبهك إلا في الاسم، وتصل شمسه العادلة إلى البندقية، روما... وقشتالة.

أما أنت... فستبقى في سجلات التاريخ كسطرٍ مبلّل بالدموع والدم، لا بالمجد، الجميع سوف يتذكر الدماء التي سفكتَ والبلدان التي غزوت.»

تراجعتُ خطوة، لكن الأرض تحت قدمي كانت كوحلٍ يغرقني.

أردت أن أصرخ... أن أذبحه... أن أُكذّب نبوءته، لكن شيئًا في صدري قال:

«إنه صادق، كما صدق بكل ما سبق.»

مدّ يده، وربّت على كتفي كأبٍ يودّع طفله الضائع، وهمس:

«وداعًا... ظلّ السلطان، لقد انتهى بالنسبة لك كل شيء.»

ثم استدار، واختفى بين الضباب، كأن الغابة ابتلعته، ولم يبقَ إلا صدى جملته الأخيرة يطنّ في رأسي:

«لم تكن أنت النبوءة... كنت الباب فقط.»

عدتُ من عتمة الغابة إلى وهج الشمعة في غرفتي، لأجد الظلّ على الجدار أطول من جسدي، كأنه يودّعني قبل أن أودّع الدنيا.

أمسكت الريشة مجددًا، وكتبت بيد مرتجفة:

«أنا... ظلّ خذله الضوء، وعليّ أن أذوب في عتمتي.»

سقطت قطرة حبر، لتمتزج مع قطرة الدم التي سبقتها، وذابت الشمعة أكثر، كأن الليل يستعدّ لإسدال ستاره الأخير... قبل أن يقرع صدري سعالٌ جديد، يطفئ كل ما تبقّى من يقين.

نامت الكلمات على الصفحة قبل أن ينام جسدي، الريشة سقطت من يدي، والشمعة انحنت كأنها تسلمني لليلٍ بلا يقظة.

ثقل جفنيّ جرفني بعيدًا، لكن النوم لم يكن رحيمًا... كان بوابة أخرى، لا تُفضي إلا إلى الجحيم.

هنا، عند ساحة بوابة زويلة، كانت تتسع أمامي كفم وحشٍ جائع.

السماء لونها رماد، تتدلى منها خيوط دخان، وتحت قدمي أرض تئنّ من ثِقل الدماء، تجري كأنهارٍ لا شطآن لها.

و أنا هنا، فوق حصاني الأسود، يعلو صهيله على صرخات الموتى.

رايتي العثمانية ترتفع في الهواء، لكن كل رفرفة لها كانت ترشّ دمًا، كأجنحة طائر ذُبح للتو.

و من حولي الانكشارية، صفوفٌ في زيّهم الأسود، وجوههم كالأقنعة، وطبولهم تقرع إيقاعًا يشبه دقات قلبي المذعورة.

الدم يغمر الأرض حتى كاد يصل لركبتي الخيل، والنار تحيط بالمشهد كأفعى من لهب، تلفّ رقاب الأشجار، تلتهم كل أثرٍ للحياة.

إلى يميني كان خاير بك، بعينين زجاجيتين كأنهما لا تريان شيئًا سوى الخيانة، وإلى يساري جان بردي، وجهه مُلطخ بالسواد، يبتسم ابتسامة الموتى.

و كلٌّ منهما على صهوة جواده، لا يتكلّم، فقط يحدّقان بي كأنهما يحرسان قبري لا عرشي.

وفي منتصف الجحيم، يقف عُبّاد شاه.

ثوبه أسود كالغابة التي التقينا فيها، وعلى معصمه غراب أعور، يضرب بجناحه كأنه يُصفّق لرقصة النهاية، عينه الوحيدة تُنقّط سوادًا في الهواء، وتحدّق بي كمن يفضح سرًّا لم أعد أملك إخفاءه.

أردتُ أن أصرخ باسمه أن أخبره بأن نتراجع، لكنه رفع يده، فأطبق صوتي في حلقي.

ابتسم ببطء، وأشار إلى البوابة، حيث يقف رجل بثوب أبيض، وحول رأسه تاج من لؤلؤ، طومان باي.

كان جسده منتصبًا كرمح، وحول عنقه حبل مقطوع يتدلى كأفعى فقدت فريستها، والريح تعبث به كأنها تهزأ بي.

خلفه العوام، رجالٌ و نساء لهم بوجوه مغسولة بالدموع، أجسادهم مثقوبة بالسهام، وجروحهم تنزف على الأرض حتى اختلطت بدم النهر.

اقترب طومان، خطوته تقتلع الصمت، وصوته يشقّ الأفق، حادًا كالنصل:

«لن تبلغها، حتى تنال حسابك، ونسامحك بذنبنا، لن تتجاوز بابها مهما قوة جيوشك يا ابن عثمان.»

كانت كلماته كالسياط، تنهال على ظهري، تجرّدني من كل يقين، رفعت رأسي، فإذا بالبوابة خلفه تتحوّل إلى فمٍ هائل من نار، والظلال تندفع

منها كذئاب جائعة، تنقضّ على جنودي، تنهشهم بلا رحمة.

خاير بك وجان بردي يذوبان في الدم أمام عيني بين اللهب والغراب الأعور يحلّق فوق رأسي، يصرخ صرخة شقّت قلبي قبل أذني.

حتى رايتي، رايتي التي كانت ترفرف، اشتعلت فجأة، وصارت نارًا تأكل قماشها كما أكلت سنواتي.

صرخت، لكن صوتي خرج بلا صدى.

حاولت أن أمدّ يدي للسيف، فلم أجد سوى مقبضٍ من رماد.

والنار، النار تقترب... حتى شعرت بوهجها يلتهم وجهي.

وفي تلك اللحظة التي أوشك اللهيب أن يبتلعني مستسلم، انفجرت النار في وجهي، وصرخة الغراب الأعور شقت رأسي ، مجددا حاولت أن أصرخ، لكن الظلام ابتلعني قبل أن يولد صوتي.

ثم فجأة، عاد الضوء، لا ضوء النهار، بل ضوء شمعةٍ تُنازع الموت.

شهقة تمزقت من بين صدري وأنا أفيق من كابوسٍ كاد يفتك بعقلي

فتحت عيني و أنا أرتعش خوفًا، لأجدني غرفتي، هي نفسها، و رائحة الخلّ لازالت تنفذ إلى صدري، والمبخرة تهمس بدخانها في زوايا السقف.

تلمست وجهي، كان جافًا، لكن داخلي كان غارقًا في العرق البارد.

يداي ترتجفان، الحبر يلطخ أصابعي كدمٍ لم يُغسل بعد، لقد أدركت أن الموت ليس وحده من يزحف إليّ، بل خيانة الجهاردية، أولئك الذين توهمت أنهم سيفي فأصبحوا خنجري المغروس في ظهري.

عُبّاد شاه... اسمه كاللهيب في أذني.

أقسمت بيني وبين نفسي، إن لم أقتلهم قبل أن يقتلني قدري، فلن أكون ياووز، حتى لو وقفتُ على حافة قبري.

كان الليل يبتلع إسطنبول حين دوّى صوت خطوات الحرس في دهاليز القصر، أوامري خرجت حادّة، قاطعة كحدّ السيف.

دخل يونس آغا الذي صار صدري الأعظم بعد سنان باشا ، قامته منتصبة، درعه اللامع يعكس وهج المشاعل، انحنى حتى كاد جبينه يلامس الأرض، وصوته يقطر ولاءً:

«كما تأمر يا مولاي.»

رفعت يدي المرتجفة، وأشرت نحوه بإصبعٍ واحد:

«اجمع جحافل الانكشارية، أشدّهم بأسًا، وأقواهم عزمًا، فليختفوا في غابة بلغراد قبل أن يشرق الفجر ولا يعودوا إلى برأس عُبّاد شاه و جثث الجهاردة محمولة على عربة لأراهم بنفسي .»

انحنى يونس ثانية، ثم استدار بخطوة ثابتة، سيفه يتأرجح عند خاصرته، وعباءته السوداء ترسم قوسًا في الهواء قبل أن يبتلعه الممر الحجري.

ومن خلفه، اندفعت صفوف الحرس، صفًا بعد صف، دروعهم تتصادم في لحنٍ معدنيّ، كأنه نذير حربٍ لا ترى عيونها إلا الظلال.

ثلاثة أيام مرّت كدهرٍ لا ينتهي، و الانتظار الذي ينهش الروح.

الأيام تجرّ الليل من ذيله، والليل يرمي ظله في عينيّ حتى وأنا مستيقظ.

في اليوم الأول، كان الأمل يجري في عروقي، كفرسٍ متوثّب ينتظر الإشارة.

في اليوم الثاني، شعرت بثِقل المرض، أتكئ على عصا من عاجٍ، أجرّ خطواتي في أروقة القصر، كأن الأرض تغوص تحت قدمي.

وفي الثالث... صار الوقت حبلًا يلتف حول عنقي، يضغط كلما ابتسم الخدم بخوفٍ لم يخفوه جيدًا.

كنت أتمدد في جناحي، و مبخرة النحاس تنفث بخار الشيح عند رأسي، و رائحة الأدوية والخَلّ تسحق أنفي، أراقب من شرفتي صفوف الجنود المنتشرة عند البوابات، كذئابٍ تترقب صوت الفريسة.

تثاءب الأفق تحت غطاءٍ من رماد، والضباب يصبو على الطريق مثل شبحٍ بلا ملامح.

ثم ظهرت عربة وحيدة، يجرّها حصان أسود، لجامه مغطّى برغوة بيضاء، وعيناه تبرقان كقطعتي جمر.

اقتربت ببطء، عجلاتها تصدر أنينًا يخدش صمت الفجر، ومن تحت غطائها المائل، تسيل الدماء، خطوطًا حمراء تخطّ على الطين خرائط جحيمٍ لا يعرف الخلاص.

من شرفتي، أمسكت بدرابزين البرونز بكلتا يديّ، حتى انغرس الألم في عظامي.

تحركت ستائر الحرير خلفي مع نسمة باردة، كأنها تهمس: « انتظر...»

وصلت العربة إلى الساحة الداخلية.

هوت عصا يونس آغا الحديدية على الأرض ثلاث مرات، فأحاط بها ستة من الانكشارية، وجوههم مقنّعة بالدروع، و سيوفهم تلمع تحت الضوء المائل للفجر.

قفز أحدهم على العجلات، قبض على الغطاء المشدود، وسحبه دفعة واحدة.

ارتجف الهواء.

و هتف الجندي مرتعبً:

« إنها الجثث...»

كانت العربة مليئة بأجساد الانكشاريين، مرصوصة فوق بعضها كأخشاب محترقة، سواعد مبتورة، سيقان تنزف جفافًا، وجوه جُمّدت على صرخاتٍ لم تصل.

رأيت يونس يتراجع خطوة، كتفه يهتزّ، لكن قبضته ظلت مشدودة على نصاب سيفه، مد يده المرتجفة محاولًا التظاهر بالقوة أمام جنوده، التقط ورقة صغيرة كانت مثبتة بخنجر صدئ في صدر أحد القتلى.

رفعها أمام عينيه، ثم قرأ بصوتٍ مبحوح، يقطعه الرعب:

«إلى السلطان الذي ظن نفسه مختارًا، نحن لا نموت حين تغيب أجسادنا عن جيوشك، بل نحيا حين نغرس أعيننا في قلب قصرك.

غبنا عن صفوفك، لكننا نرى كل ما يدور بين جدرانك، نعرف أنفاسك قبل أن تخرج، ونعرف أين يختبئ خوفك.

لا تبحث عنّا يا سليم، لأنك كلما بحثت، ازددت ضياعًا في ظلك».

الكمال

عُبّاد شاه

كانت يدي تشدّ الدرابزين حتى اسودّت مفاصلي، والورقة في يد يونس ترتجف كجناح طائر ذبيح.

أحسست بأن الغرفة تضيق بي، الجدران تتقارب كأني في قبرٍ قبل أوانه.

ركضت عيناي نحو الأفق، كأني أفتّش عن نورٍ يكسر هذا الرماد، فلم أجد سوى غيومٍ تُغطي الشمس، كأن السماء أغلقت أبوابها في وجهي.

ارتجفت ساقاي، تهاويت إلى الوراء، اصطدمت بوسادة الأريكة الثقيلة، شعرت بأنفاسي تتقطع، وحلقي كأنه يمتلئ برماد الجثث.

مددت يدي المرتعشة، خطفت الريشة من الطاولة، أردت أن أكتب، لكن الحبر انسكب على الأرض، و صار يسيل ببطء، يرسم شكلًا يشبه غرابًا أسود على الرخام.

أغمضت عيني، وهمست لنفسي، صوتي بالكاد يخترق الظلام الذي بدأ يزحف داخلي:

« يا الله أغثني منهم، لقد جلبتُ لنفسي لعنة لا تُكسر، قوة لا تُطوّع... وخسرت الحرب حتى قبل أن تُرفع الراية.»

سقطت الورقة من يدي، تتراقص في الهواء كأنها طيفٌ صغير... قبل أن تستقر فوق بقعة الحبر، التي صارت الآن أشبه بظلٍّ ثم صار غرابًا كامل الجناحين، يفتح فمه كأنه يضحك.

لم أدرِ متى أغمضت عينيّ، لكن حين فتحتها، لم أكن في جناحي... كنت في مكانٍ بلا أرض ولا سماء.

هنا، يبدأ الجحيم الحقيقي.

الضباب يلتفّ حولي كأكفانٍ مشتعلة، وخطواتٌ تقترب، ناعمة، كأنها تخرج من رحم الليل.

التفتّ... فرأيتها.

كانت هي، ثُريّا.

كانت تقف في منتصف الفراغ، ثوبها الأبيض ينساب حولها كغيمة من نورٍ خافت، لكن عينيها لا تحملان سوى ليلٍ صافٍ بلا قمر.

ابتسمت لي، ابتسامة كسكين مغروس في صدر من يثق.

ثم مددت يدي نحوها، لكن أصابعي كانت رمادًا يتساقط قبل أن يلمس الهواء.

«ثُرَيّا... أهذا أنتِ حقا؟»

قالتها شفتاي كصدى روحٍ تاهت.

أجابتني بصوتٍ رخيم، يقطر بردًا، ومع كل كلمة منها، شعرتُ بأوردتي تتجمد:

«أنا ما زرعتَه في قلبك وجئتُ أجني حصادك يا سليم.»

ابتلعت ريقي، لكن فمي كان جافًا كصحراء:

«أردتُك حياة... فصرتِ موتي؟»

اقتربت، كان وقع قدميها لا يُسمع، لكنه يهزّ روحي:

« أنت من قتلني يومًا بعنده و جبروته، فهل تظنني أغفر لك الآن؟»

صرخت فزعًا، ثم ركضت، لكن الضباب انحسر فجأة، لأجدني

وإذا بي في غابة بلغراد لكن الأشجار بدت كالأطياف و الأرض تحت قدمي مبتلة بالدماء، وأصوات الطبول تقرع من بعيد، كل دقّة منها كضربة مطرقة على جمجمتي.

ثم من بين الظلام و أطياف الشجر ظهر عُبّاد شاه أمامي، عيونه تتوهّج كجمرتين، وعلى معصمه الغراب الأعور، يرفرف جناحاه ببطء، كأنهما يوقّتان موتي.

صنعك بصوت يزلزل صدري:

«ياووز... ألم نحذّرك؟ أنت لست المختار، كنت مجرد طريقٍ للقدر، وسلكته حتى نهايته.»

رغم خوفي إلا أني قلت لنفسي ما دمت ميتًا لا محال إذًا لأموت و أنا قاتله، اقتربت منه بحذر ثم رفعت يدي، أردت أن أقبض على عنقه، لكن يدي مرّت من خلاله كأنه دخان.

«سليم، أنت لستَ سوى ظلٍّ مكسور، أردتَ الشرق، ففتحناه لك، أردت الغرب، فابتلعك قبل أن تخطو نحوه.»

حاولت أن أصرخ، لكن صوتي لم يخرج، فقط الدم خرج من فمي، يسيل على صدري، يسخن جلدي كالنار.

اقترب عُبّاد شاه، انحنى حتى لامست أنفاسه أذني:

« ستموت وحدك، لأنك لم تعرف يومًا إلا ذاتك.»

ثم اختفى، تاركًا خلفه رائحة موتٍ باردة.

وانشقّت الأرض من تحتي، لأهبط إلى جوف الأرض.

تصاعدت أنفاسي الساخنة و ملئت رئتياي، أخشى أن أموت و أنا مدفون حيًا، لكن فجاه أستعى تراب من حولي و هبطت على أرض مستقرة و ظهر بصيص نور ساطع، وجدت نفسي في قاعة عرشِ أبي، لكنها مدمّرة متهالكة، أعمدتها مائلة، والذهب فيها صار صدأً.

وفوق العرش جلس أحمد، عيونه شاخصة و على رأسه تاج سلطنة أبي، شفتيه تلقيان بحروفٍ متقطعة:

«سليم!، أأنت سعيدٌ بموتي الآن؟ »

وقبل أن أجيب، انبثق كوركود من ظل زواية قرب أحمد، ثوبه ملطخ بالدم ويحمل كتاب محترق ذو صفحات متفحمة، وصوته يجلجل كالرعد:

«من قتل إخوتَه بعد أن وعدهم بالحياة، كيف ينتظر رحمة السماء؟»

حاولت الركض أو التحرك لكن كانت قدماي في الأرض، لم أستطع الحركة، وصرخت بصوتٍ تشرّخ في أعماقي:

« سامحوني أرجوكم، فلم يكن لي خيار!.. لم يكن لي خيار! أقسم لكم»

ضحكا معًا، ضحكةً كأنها ألف خنجرٍ في ظهري.

ثم انطفأت ملامحهما، واختفت القاعة، لأجد نفسي عائدًا إلى غرفتي... أو ما يشبهها.

نهضت مترنّحًا، ألهث، الغرفة أمامي تتلوّى، الجدران تنبض كجلد حيّ، والمشاعل تشتعل وتخبو كصدور تحتضر.

مددت يدي إلى الطاولة، التقطت الدفتر، أردت أن أكتب:

«اللهم... اغفر لي... قبل أن تغلق بابك.»

لكن الحروف تناثرت من عقلي كأوراق في عاصفة و جمدت يدي عن الحركة ، والظلام

تمدّد من الزوايا الغرفة حتى صار كتلة أمامي، ثم أخذ شكلًا، لكن ليس على الأرض أو الحائط هذه المرة.

كان ظلي واقفًا أمامي ، يتضخم حتى صار نسخة أخرى منّي، لكن عينيه بلا بياض، سواد كامل، يلتهمني.

ابتسم ابتسامة باردة، وقال بصوتي، لكن أعمق، كأنه يخرج من قاع بئر:

«ظننتني مجرّد انعكاس، أنا هي حقيقتك التي كنت تهرب منها.»

شهقت، تراجعت، حتى التصقت بالجدار:

«من... أنت؟»

ضحك، صوت الضحكة كطقطقة عظام تتكسر بقبر:

«أنا ياووز الذي أردت أن تكونه، بلا رحمة، بلا ندم، وأنا من مات فيك يوم طلبت الغفران.»

صرخت، دموعي تشتعل مع صوتي:

«لكني أريد الحياة... أريد النور! أريد أن يغفرلي. »

اقترب، رفع يده، أشار إلى صدري بموضع القلب و همس بحدة:

«أنت قتلت النور يوم أغمضت عينيك عن الدماء، كل خطوة نحو العرش، كانت خطوة نحو قبري وقبرك معًا.»

انحنى نحوي، همس في أذني ببرودٍ يقتل:

«سليم، أنا لم أعد ظلك، أنا قبرك.»

وفجأة، بدأ الظلّ يتبخر، يتحول إلى دخان أسود يتصاعد نحو السقف، يلتفّ في دوامة حتى يختفي مع أول صيحة للفجر.

حين تلاشى الظلّ، شعرت بجسدي ينهار، سقطت على ركبتي، الدفتر كان أمامي، والريشة المكسورة بجواره كعظمٍ جُرّد من لحم.

مددت يدي المرتعشة نحوها، لكن أصابعي خانتني، فتساقطت كأوراقٍ في ريحٍ باردة.

رفعت رأسي بصعوبة، عيناي مثقلتان بالليل، فرأيت من خلف الشرفة خيط الفجر الأول يشقّ السماء، كجرحٍ باهت في صدر الظلام.

همست بشفاهٍ جافة، تتشقق من العطش والخوف:

«يا ألله، سامح عبدًا قد ضلّ سبيله

و أنت أرحم الراحمين.»

ثم اختل اتزاني، انحنيتُ للأمام، وجبهتي ارتطمت بالسجادة، قبل أن أزحف عائدًا نحو سريري، كأن الأرض تبتلعني رويدًا.

وفي الأفق، ارتفع صوت الأذان، يملأ الغرفة بارتعاشٍ يشبه الغفران البعيد:

«الله أكبر... الله أكبر...»

وفي تلك اللحظة... انشقّ الهواء، و فتحت ثُريّا باب الجناح ،لكن صوتها هذه المرة لم يكن كسابقه؛ كان ناعمًا، دافئًا أكثر، يحمل بين حروفه حضنًا فقدته منذ عقود.

همست وهي ترفع رأسي عن الأرض، أصابعها كندى الفجر:

«يا صغيري... أرهقك اللعب، فنمتَ على الأرض مجددًا.»

رفعت رأسي ببطء، عيناي معلقّتان بظل شمعة تتآكل نصفها، بينما نصفها الآخر يقاتل كي لا يغيب وعيي للأبد.

همست، وصوتي يخرج مشروخًا من صدرٍ امتلأ بالندم:

«الله، لن يغفر لي أبدًا يا ثُريّا، لقد تركني كما تركني الجميع.»

اقتربت أكثر، مسحت على وجنتي بيدٍ مرتعشة بالحنان، ثم طبعت قبلة بين عيني، وهمست بنبرةٍ كالماء يسيل فوق نار:

« الله لم يتركك يا سليم، أنت من تركه، حين عبدت المجد، وجعلت الدماء سجادتك للصلاة.»

ارتجفت شفتاي، وانسكبت دموعي بحرارة الموت القادم، قبل أن أتنهد من بين أنفاسي الأخيرة:

«ثُريّا، يا ليتني متّ طفلًا في حضنك، قبل أن أكبر وأصير ظلًّا يحكم ظلالًا.»

شدّتني إلى صدرها، احتوتني كما تحتضن الأم طفلها في ليلٍ بلا قمر.

ومع آخر كلمة خرجت من فمي، انقطعت أنفاسي، حتى صار صوتي صدى بعيدًا، يذوب في صمتٍ أبديّ.

انطفأت المشاعل فجأة، وسقطت شمعة عند قدمي، تاركة خلفها خيطًا من دخان... يشبه ظلًّا مات للتو.

ثم انطفأت آخر شمعة، وخيط الدخان ما زال يتلوّى في هواء الغرفة، يشبه ظلًّا مات للتو.

وفي الممرات البعيدة، كان الصمت يثقل القصر كما يثقل الكفن الجسد.

فتح الآغا باب الحجرة بخطوات متردّدة، والريح تهب من الشرفة حاملة برودة الفجر.

كانت الغرفة شبه مظلمة إلا من وهجٍ واهن من شمعة تحترق في زاوية بعيدة.

تقدّم الآغا ببطء، عيناه تبحثان عن حركة، عن نفسٍ لم ينقطع بعد.

وهناك، عند طرف الشرفة، كان سليم مستلقيًا على الأرض، رأسه مائل إلى جانب كتفه، ويداه تشدّان الدفتر إلى صدره كأنه يخشى أن يسلبه الموت أوراقه.

ركع الآغا بجواره، مدّ يده المرتعشة يتحسس النبض عند معصمه، ثم قرب أنفه من فمه، فلم يجد سوى بردٍ صامت، كأن الغرفة لفظت آخر أنفاسها.

أسند الآغا جبينه على الأرض، انسلت دمعة ساخنة من عينه لثوانٍ، ثم نهض بصوتٍ مخنوق، وخرج إلى الممرات يركض، صرخ صرخة كسرت سكون القصر:

«مات السلطان... مات ياووز!»

ارتجّ المكان، وتعالت أصوات الجنود و الجواري حتى الخصيان، وانتشر الخبر كريحٍ سوداء تجتاح أروقة القصر كله.

بعد ساعات ليست بطويلة، اهتزت أبواب القصر عند دخول موكبٍ أسود يشقّ الفجر.

كان الأمير سليمان على صهوة جواده، عيونه مثقلة بالدهشة و الدمع المحبوس، وأمه حفصة عائشة تسير بجواره بوجهٍ شاحب يختزن فجيعةً وصبرًا.

ترجلا عن العربة أمام البوابة العظمى للقصر، وسار سليمان في ممرات الحرملك بخطواتٍ ثابتة، لكن كل خطوة كانت تثقل قلبه أكثر، المشاعل على الجدران تومض في الظلام، كأنها تشعل طريقه نحو قدرٍ لم يختره، لكنه وُلد لأجله.

دخل جناح السلطان الراحل، فرأى المشهد كأنه صفحة أخيرة في كتابٍ دمويّ.

سليم، ممدّد على فراشه بعد أن غُسّل وكُفّن، ووجهه مستكين بعد حربٍ لم ينتصر فيها إلا الموت.

وقف سليمان عند قدميه، تجمدت عيناه للحظة، كأنه لا يصدّق أن أقوى السلاطين سقط وحيدًا في صمتٍ مريع.

اقترب ببطء، ثم انحنى بكل وقاره، أمسك يد أبيه بين كفيه، وقبّلها، فارتعشت دمعة حارّة في عينه.

ثم همس بصوتٍ مختنق:

«يا أبتِ... كنتَ جبلًا، فكيف انهار ذاك الجبل؟»

مسح دمعته بطرف أصبعه و رفع رأسه، فوقع بصره على دفترٍ جلديٍّ كبير على حافة السرير، مد يده إليه، فتحه، فإذا بالحروف الأخيرة تخترق قلبه كسهام:

« قولوا عنّي ما شئتم... لكن لا تقولوا إنني كنتُ حيًّا، اللهم إن كان ما بي لما اقترفته من ذنب فاغفر لي، فإنك أنت الغفور الشكور.»

ظلّ سليمان يحدّق في السطور، كأنها صوت أبيه يهمس من وراء التراب.

ثم أغلق الدفتر، دسّه في حزامه بجانب خنجره، ورفع يده إلى السماء، وعيناه تحدقان في جسد أبيه الذي غلبه الموت بعد أن غلب الدنيا:

« الفاتحة على روحك... يا أبي، و يا خليفة المسلمين.»

في تلك اللحظة، دوّى أذان المغرب من شرفة الجناح، و امتزج بصوت الريح وهي تعصف من شرفات القصر، تحمل معها أوراقًا بيضاء متناثرة من الدفتر، تطير في الأفق كأسرارٍ لم تكتمل، كظلالٍ تبحث عن شمسٍ جديدة.

عن شمسٌ ستشرق من اسمٍ آخر، سليمان القانوني.

كان صوت الأذان ما زال يتردّد في أرجاء إسطنبول:

«الله أكبر... الله أكبر...»

بينما في الخارج، كانت الشمس تغرب على قصرٍ فقد سلطانه... لتعلن بداية عهدٍ جديد، وأنها ستشرق غدًا مع سلطان جديد.

تمت بحمد الله ٢٣ أغسطس ٢٠٢٥م

ميمونة أحمد الخولي